

د. خالد عيفان إسماعيل*

E mail: khalid.eyfan@imamalahdam.edu.iq

ملخص

يتناول هذا البحث مفهوم التجسس من منظور لغوي واصطلاحي، ويستعرض أنواعه وأحكامه الشرعية في ضوء القرآن والسنة وأقوال العلماء، وقد بينت الدراسة أن للتجسس صورتين: مشروع وغير مشروع، فالمشروع هو ما كان في سياق الحروب والدفاع عن الدولة، بينما يُعدّ غير المشروع حراماً، كالتجسس على عورات المسلمين أو لصالح الأعداء، كما ناقشت الدراسة الفرق بين "التجسس" و"التحسس"، وإشارة إلى أن الأول غالباً في الشر والثاني في الخير، ثم بينت التطور التاريخي للعمل الاستخباري وأثره في المعارك والسياسة، وخلصت إلى أن التجسس أداة لها آثار إيجابية في حفظ الأمن عند استخدامه وفق ضوابط الشرع، وأخرى سلبية جسيمة إذا استُخدم في غير موضعه.

This research explores the concept of espionage from linguistic, legal, and religious perspectives. It differentiates between legitimate and illegitimate forms of spying, emphasizing that espionage is permissible in times of war and for national defense, while prohibited when it involves violating personal privacy or assisting enemies. The study also highlights the distinction between the Arabic terms "tajassus" (spying with ill intent) and "tahassus" (seeking information for good purposes). It traces the historical development of intelligence work and its vital role in wars and political affairs. The research concludes that while

* دكتوراه التفسير وعلوم القرآن - كلية الإمام الأعظم الجامعة.

espionage can serve security purposes if aligned with Islamic principles, it becomes dangerous and immoral when misused.

مَقْدَمَةٌ

الحمد لله الذي أحاطنا بفيض كرمه وعطائه وألهمنا الشكر والتبصر في خلقه وآلائه، منّ علينا بكتاب مبين تطيب به الأنفاس، وأرسل إلينا نبياً فصرنا به خير أمة أخرجت للناس، والصلاة والسلام على نبي الرحمة، هادي الأمة، المبلغ عن ربّه بأعظم بيان وأفصح لسان، ورضي الله عن أئمة الهدى مصابيح الدجى صحابة المصطفى، وعمّن تبعهم وسار على نهجهم إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

أما بعد:

إن رغبة كثير من المخلوقات في التعرف على ما يحيط بها هي صفة متأصلة وجذورها غائرة في القدم، وكل مخلوق فطره الله تعالى ليستكشف ما حوله للبحث عن مأكّل أو مشرب، فنرى أسراباً من الطيور حين تهاجر وتقطع مسافات طويلة بحثاً عن موطن أو مسكن، أمّا الإنسان فإن استمرار عيشه يوجب أن يستفسر مقدّماً عن موقعه ومستقبله وحياته، فمنذ أن خلقه الله تعالى على هذه الأرض وهو في يصارع ويكافح ويكدح من أجل حياته وبقائه، وسخر له الطبيعة وما فيها من مخلوقات، وهياً له أسباب التطور فأصبحت تسمو آماله في تحقيق مستوى أفضل من التقدم والرقي، وتنمو وتتطور معه الوسائل التي تعينه في الكشف عن مواطن الظفر^(١)، وقد جاءت الشريعة الإسلامية لتناسب كلّ بيئة وكل مرحلة تمر بها النشأة الإنسانية، آخذاً بنظر الاعتبار فطرة الإنسان واستعداداته والمتغيرات التي تحيط به، وأراد الخالق جلّ جلاله أن يجعل من شأن هذا الدين تقويم الإنسان في ميوله واستعداداته ليقوده إليه تعالى في طريق الكمال، فجعله منهجاً هتياً ليتناً مناسباً للفطرة، يدفعها في مواضع ويردعها في أخرى، ويقومها حين تميل دون كسر أو تحطيم.

ولبيان هذه الأمور بشيء من التفصيل، فقد شرعت بعد توفيق الله تعالى بإنشاء هذا البحث لتناول التجسس في القرآن الكريم من زاوية موضوعية، وقد سمّي البحث بهذا الاسم، فكان على النحو الذي بين يدي القارئ الكريم، واقتضت طبيعة البحث أن يكون على: مقدمة؛ وثلاثة مباحث؛ وخاتمة، وكما يأتي:

❖ المقدمة: تناولت فيها المقدمة لموضوع البحث، وسبب اختياري له، وتفصيلاته، والفائدة المتوخاة منه.

(١) . ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: رسالة ماجستير قدمها الباحث عبد الله علي السّلامة المحمد إلى كلية

الشريعة - الجامعة الأردنية، ١٩٨٦م: ص٣، التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: محمد راكان الدغمي، جمعية

عمال المطابع التعاونية . عمان، ١٩٨٤م، ط١: ص٣٠.

❖ المبحث الأول: جعلته على أربعة مطالب، عرّفت فيه بالتجسس في اللغة والاصطلاح، وتناولت التعريف بالتجسس في اللغة والاصطلاح باعتباره من التعريفات ذات الصلة، وتكلمت فيه عن العلاقة بين التجسس والتجسس، كما تناولت مراحل التجسس عبر التاريخ.

❖ المبحث الثاني: بينت باختصار حكم التجسس من حيث المشروعية وعدمها، وجعلته على ثلاثة مطالب، تكلمت في الأول عن التجسس المشروع وأحواله، وفي الثاني عن غير المشروع وأحواله، ثم جعلت الثالث لبيان الحكم الذي يترتب على الجاسوس المسلم الذي يتجسس لصالح العدو خلال عرض لأقوال العلماء.

❖ المبحث الثالث: جعلت هذا المبحث في ثلاثة مطالب أيضاً، تطرقت في الأول إلى إيجابيات التجسس وسلبياته، وفي الثاني عن الأسباب والدوافع الداعية إلى التجسس، وفي الثالث عن الطرق والأساليب التي يمكن خلالها الوقاية أو علاج التجسس غير المشروع.

❖ الخاتمة: ذكرت فيها النتائج التي توصلت إليها في البحث.

❖ أهمية البحث: تبرز أهمية هذا البحث في النقاط الآتية:

١. أهمية شرعية: إذ يعالج قضية ورد فيها النهي القرآني، مما يتطلب الوقوف على مقصود الشارع والضوابط الفقهية ذات العلاقة.

٢. أهمية واقعية: لأن التجسس أضحى أداة تستعملها الدول والجماعات والأفراد في مختلف الأغراض، ما يستدعي بيان الحكم الشرعي فيها.

٣. أهمية اجتماعية: تسهم الدراسة في تعزيز وعي المسلم بحقوق الآخرين وحرمة التعدي على خصوصياتهم، مع التفريق بين الحظر المبدئي والرخصة في حالات الضرورة.

٤. أهمية علمية: تضيف الدراسة إلى الرصيد الفقهي والبحثي معالجة تجمع بين الجانب التأصيلي والجانب التطبيقي.

❖ مشكلة البحث: رغم ورود النهي الصريح عن التجسس في نصوص الشريعة الإسلامية، إلا أن الواقع المعاصر يشهد استخداماً واسعاً له، لا سيما في المجالات الأمنية والسياسية والاجتماعية، وهو ما يفرض تساؤلات ملحة حول الموقف الشرعي من هذا الفعل:

١. ما هو الضابط الفارق بين التجسس المشروع وغير المشروع؟

٢. هل يجوز اللجوء إلى التجسس عند الضرورة؟

٣. ما هي الضوابط الشرعية التي تحكم جوازه أو منعه؟

٤. هل يختلف الحكم باختلاف الجهة المتجسس عليها أو لصالحها؟

تسعى هذه الدراسة إلى معالجة هذه الإشكالات، من خلال التأصيل الشرعي للمسألة، وربطها بواقع المسلمين المعاصر.

❖ الدراسات السابقة: هنالك كثير من الدراسات تناولت موضوع التجسس، فمنها ما تطرقت إليه باختصار ومنها ما تعرضت له بشيء من التفصيل، وأزعم أنني في هذه الدراسة جمعت بين النصوص التي تخدم هذه الدراسة، وقد ذكرت بعض هذه الدراسات في ثبوت المصادر منها ما يأتي:

١. التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: محمد راكان الدغمي، جمعية عمال المطابع التعاونية . عمان، ط١، ١٩٨٤م .
 ٢. الاستخبارات العسكرية في الإسلام: رسالة ماجستير قدمها الباحث: عبد الله علي السلامة إلى كلية الشريعة في الجامعة الأردنية، ١٩٨٦م.
 ٣. الباحثون عن الأسرار: قحطان محمد صالح الجميلي، المكتبة الوطنية . بغداد، ١٩٨٦م .
 ٤. الحرب الخفية (فلسفة الجاسوسية ومقاومتها): صلاح محمد نصر، دار الوطن العربي، ط٢، د.ت .
 ٥. تقنية التجسس: غراهام يوست، ترجمة الرائد إلياس فرحات، دار الحرف العربي . بيروت، ط٢، ١٩٩٠م .
 ٦. السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: بريك بن محمد بريك أبو مائلة العمري، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، ط١، ١٩٩٦م .
 ٧. مجلة الحرس الوطني: التجسس من خلال اختراق شبكات الاتصالات: سبأ عبد الله باهبري، العدد ٢١٨ أغسطس ٢٠٠٠م .
 ٨. العملاء كما يصورهم القرآن الكريم: محمد نور الدين شحادة، المكتبة الوطنية . عمان، ٢٠٠٥م .
- ❖ منهجية البحث:

١. استعنت في إنشاء البحث على بعض المصادر التي تطرقت إلى موضوع التجسس، وقد ذكرت هذه المصادر في نهاية البحث مرتبة.
٢. اتبعت في كتابة البحث الأسلوب الميسر في صياغة العبارات، ولم أسهب خشية الإطالة.
٣. عزوت الآيات القرآنية إلى سورها.
٤. وثقت أرقام الآيات وأسماء السور في المتن ولم أفرد لها هوامش.
٥. قمت بتخريج الأحاديث التي وردت في البحث من مظانها.
٦. عرّفت بالأعلام التي تقتضي الحاجة إلى التعريف بها.
٧. وثّقت في هامش البحث للنصوص التي استعنت بها من المصادر.
٨. ختمت البحث بوضع الفهارس لجميع محتوياته.

والله تعالى أسأل أن يوفقني ويسدّني، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، إنه نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المبحث الأول

المطلب الأول (تعريف التجسس لغةً واصطلاحاً) وفيه فرعان:

الفرع الأول: تعريف التجسس لغةً:

جاء في لسان العرب أن الجسَّ بالعين بمعنى: حدُّ النظرِ إلى شيء ما للاستبانه والاستنبات، وكذلك يأتي بمعنى الاختبار، والمَجَسَّةُ: موضع يجسُّه الطبيب، ويقال: (جاسوس) و (عين) لمن يتجسس الاخبار ويأتي بها لقوم، وقيل إن الدابة التي تظهر آخر الزمان في جزائر البحر (الجَسَّاسَةُ) إذ تجسُّ الأخبار وتأتي بها الدجال^(١)، وذهب آخرون إلى أن التجسس من الجسَّ أي اللمس باليد، وجسَّ الخبر: أي بحث عنه أو التعرُّف عليه^(٢)، وتفحص الأمر وتطلبه، وقيل: هو التفتيش في بواطن الأمور، وجسَّ الأرض جسَّاً، قال الراغب عن معنى التجسس في قول الله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) [سورة الحجرات ١٢])، وأصل الجسِّ مسُّ العرق وتعريف نبضه، للحكم به على الصحة والسقم، وهو أخص من الحسِّ، فإن الحسَّ تعرُّف ما يدركه الحسَّ، والجسَّ تعرُّف حال ما، ومن لفظ الجسِّ اشتق الجاسوس^(٣).

وقيل هو "التعرف إلى الشيء بمسِّ لطيف، يقال جسَّستُ العرق وغَيَّرَ لأنه يتخبَّر ما يريده بخفاء ولُطْفٍ، وذكر عن الخليل أن الحواسَّ التي هي مشاعرُ الإنسان ربَّما سمَّيت جَواسَّ"^(٤)، وفي المصباح المنير: "جَسَّه بيده جَسَّاً واجْتَسَّه ليتعرَّفه، ومنه الجاسوسُ لأنه يتتبع الأخبار ويفحص عن بواطن الأمور، ثم استعير لنظر العين، وقيل في الإبل: أَفْوَاهُهَا مَجَّاسُهَا، لأن الإبل إذا أحسنت الأكل اكتفى الناظر إليها بذلك

(١). لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر . بيروت، ط١: ٣٨/٦ باب (جسس)، ينظر: المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ١٩٩٦م، ط١: ١١٠/١، وينظر: المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية . دار الدعوة: ١٢٢/١ (باب الجيم).

(٢). ينظر: كتاب الأفعال: أبو القاسم علي بن جعفر السعدي، عالم الكتب . بيروت، ١٩٨٣م، ط١: ١٨٠/١ (باب الثنائي المضاعف)، تفسير القرطبي المسمى (الجامع لأحكام القرآن): أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب . الرياض، ٢٠٠٣م: ٣٣٣/١٦، القاموس الفقهي: سعدى أبو حبيب، دار الفكر . دمشق، ١٩٨٨م، ط٢، ٦٣/١ (حرف الجيم).

(٣). المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة . بيروت: ٩٣/١ (كتاب الخاء) .

(٤). معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر . بيروت، ١٩٧٩م: ٤١٤/١ (باب جس).

في معرفة سمنها، وقيل للموضع الذي يمسه الطبيب، مَجَسَّةٌ، والجَاسَّةُ لغة في الحاسَّة والجمع: الجَوَاسُ^(١)، والجَسَّ لمس باليد للتعرف، وجس الطبيب المريض إذا لمسه ليعرف حرارته من بُرودته، وجَسَّ الشاة ليعرف إن كانت سمينة أو ضعيفة، والمَجَسَّة موضع الجَسِّ، وقد يأتي بالحاء من الحاسَّة^(٢).

بعد عرض هذه الطائفة من التعريفات اللغوية، يمكن أن يقال بأن التجسس في اللغة يأتي بمعنى التفحص والتقصي للأخبار والأشياء بسرية.

الفرع الثاني: تعريف التَّجَسُّس اصطلاحاً:

تعددت التعريفات للتجسس في معناه الاصطلاحي، وما استطعت أن أستخلصه أن التجسس يأتي بمعنى: البحث والتفحص عن معلومات سرية باستخدام الوسائل الفنية، والاستفادة منها في إعداد الخطط، وقد ورد التجسس صراحة في القرآن الكريم في معرض النهي عنه، وذلك في قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) (١٢) [سورة الحجرات ١٢]، ومعلوم أن النهي في الآية موجه إلى آحاد المسلمين وجماعاتهم، وهذا التجسس المنهي عنه هو الذي بمعنى تتبع عورات المسلمين ومحاولة استكشاف ما ستره الله تعالى، وهذا التتبع يكون لإشباع دوافع نفسية أو لأغراض معينة^(٣).

وبين الإمام الغزالي معنى التجسس في ظل الآية التي وردت بالنهي عنه، وأشار إلى أن التجسس ألا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيطلع على أسرارهم ويهتك أستارهم^(٤)، وذهب الإمام الزمخشري إلى أن التجسس بمعنى التلمس وأن التلمس بمعنى التطلب من اللمس لما في اللمس من الطلب، من ذلك قوله تعالى (وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجدْنَاها مُلِئتٌ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا) (٨) [سورة الجن ٨]^(٥)، وفي تفسير

(١) . المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المكتبة العلمية . بيروت: ١٠١/١ (كتاب الجيم).

(٢) . المغرب في ترتيب المعرب: أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد . حلب، ١٩٧٩م، ط ١: ١٤٦/١ (باب الجيم والسين).

(٣) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ص ٢٤.

(٤) . إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٩١١هـ)، دار المعرفة . بيروت، ١٥٢/٣ باب (بيان الأعداء المرخصة في الغيبة).

(٥) . تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي . بيروت: ٣٧٥/٤.

القرطبي: إن التجسس معناه: التَّبَحُّثُ^(١)، والتبحث من باب التَّفَعُّل وهو: التفتيش، ومنه بحث الفقيه لأنه يجتهد في البحث عن أصول المسائل^(٢).

وقد اجتهد الكاتب قحطان محمد صالح الجميلي في تعريف الجاسوس من وجهة نظر القانون الدولي في حال الحرب وأثناء السلم، ففي حال الحرب قال إن أفضل تعريف للجاسوس هو ما ورد في اتفاقية لاهاي الرابعة في المادة (٢٠) منها بأنه "الشخص الذي يعمل في الخفاء أو تحت ستار كاذب، فيحصل أو يحاول الحصول على معلومات في منطقة العمليات العسكرية لدولة محاربة بغية إيصالها إلى العدو"^(٣)، أما في حال السلم فهو "الذي يحاول سراً الحصول على معلومات تختص بالقوات أو الأسلحة أو الحصون أو دفاعات الدولة"^(٤).

والجاسوسية قانوناً تعني العمل سراً وبإدعاء وهمي للاستيلاء - أو محاولة الاستيلاء - على معلومات سرية بقصد إبلاغها إلى جهة معادية^(٥)، وعرفها آخرون بأنها "التفتيش السري على مجهودات الدول الأجنبية، للتحقق من قوتها وتحركاتها، ثم إبلاغ مثل هذه المعلومات إلى السلطات المختصة"^(٦).

المطلب الثاني (تعريفات ذات صلة)، تعريف التَّحَسُّسِ لُغَةً وَاصْطِلَاحاً وفيه فرعان:

الفرع الأول: تعريف التَّحَسُّسِ لُغَةً:

"الحِسُّ والحَسِيسُ هو الصوتُ الخَفِيُّ، قال الله تعالى) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢)([سورة الأنبياء ١٠٢]، والحِسُّ بكسر الحاء من أَحَسَسْتُ بالشَّيْءِ، حَسَّ بالشَّيْءِ: يَحْسُ حَسّاً وَحِسّاً وَحَسِيساً، وَأَحَسَّ بِهِ وَأَحَسَّهُ شَعْرٌ بِهِ، وَالْإِحْسَاسُ الْعِلْمُ بِالْحَوَاسِّ وَهِيَ مَشَاعِرُ الْإِنْسَانِ كَالْعَيْنِ وَالْأُذُنَ وَالْأَنْفَ وَاللِّسَانَ وَالْيَدَ، وَتَحَسَّسَ الْخَبْرَ: تَطَلَّبَهُ وَتَبَحَّثَهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ (قَالُوا إِنَّ يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) [سورة يوسف ٨٧]، وَتَحَسَّسْتُ الْخَبْرَ وَتَحَسَّيْتَهُ، وَالتَّحَسُّسُ شَبَهَ التَّسْمَعِ وَالتَّبَصُّرِ، وَتَحَسَّسْتُ مِنْ الشَّيْءِ تَخَبَّرْتُ خَبْرَهُ، وَحَسَّ وَأَحَسَّ مِنْهُ خَبِراً كِلَاهُمَا رَأَى، وَعَلَى هَذَا

(١) . ينظر: تفسير القرطبي: ١١٣/٦.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العيني الحنفي، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد (ت ٨٥٥هـ)، ٤١/٢٢ باب (الجاسوس).

(٣) . الباحثون عن الأسرار: قحطان محمد صالح الجميلي، المكتبة الوطنية . بغداد، ١٩٨٦م: ص ١٣.

(٤) . الباحثون عن الأسرار: ص ١٣.

(٥) . القانون الدولي الانساني في الاسلام، د. زيد عبد الكريم الزيد، منشورات اللجنة الدولية للصليب الاحمر . الكويت، ٢٠٠٤م: ص ٤٠.

(٦) . الحرب الخفية (فلسفة الجاسوسية ومقاومتها): صلاح محمد نصر، دار الوطن العربي، د.ت، ط ٢: ص ١٢.

فُسِرَ قوله تعالى فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) [سورة آل عمران ٥٢]، وحكى اللحياني: ما أَحَسَّ منهم أحداً: أي ما رأى، وفي التنزيل العزيز وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

[سورة مريم ٩٨]، والحس: القتل الذريع، وحَسَّنَاهُمْ أي استأصلناهم قتلاً، وحَسَّهُمْ يَحُسُّهُمْ حَسًّا: قتلهم قتلاً ذريعاً مستأصلاً، قال تعالى □ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ □ [آل عمران ١٥٢]، أي تقتلونهم قتلاً شديداً^(١)، وقيل إن الحس بمعنيين: "أولهما غلبة الشيء بقتل أو غيره، والثاني حكاية صوتٍ عند توجُّعٍ وشبهه"^(٢)، و"تحسس الخبر: تطلب معرفته، وتحسس من القوم أي تتبّع أخبارهم"^(٣).

يتبين من عرض التعريفات اللغوية أن هنالك صلة بين التجسس (بالجيم) والتحسس (بالحاء المهملة)، وهي أنهما يجتمعان في معنى البحث والتقصي أو التتبع، وأن كلا منهما يعني البحث عن الأخبار وتقصصها بصورة سرية أو خفية، ومعرفة الأمور والبحث عنها وطلبها^(٤).

الفرع الثاني: تعريف التَّحَسُّسِ اصطلاحاً:

في هذا المقام سأجمع أقوال العلماء فيما يخص التعريف الاصطلاحي لكلمة (التحسس)، ذلك أن معناه جاء ملازماً لمعنى التجسس.

جاء في صحيح البخاري: "هو طلب الخبر بالحاسة، أو هو (تَقَعُل) من الإحساس: وهو المعرفة"^(٥)، المعرفة^(٥)، وفي شرح السنة بين الإمام البغوي أن التحسس يكون في طلب الأخبار بالخير، مستشهداً بقول الله جل شأنه يَا بَنِيَّ ادْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَّسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) [سورة يوسف ٨٧]، أما فيما يتعلق بالنهي عن التحسس الذي ورد في حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام بقوله: ((ولا تحسسوا))^(٦) فإن البغوي يشير إلى أن النهي

(١). لسان العرب: ٤٩/٦ باب (حسس).

(٢). معجم مقاييس اللغة: ٩/٢ باب (حس).

(٣). المعجم الوسيط: ١٧٢/١ باب (الحاء) مادة (حس).

(٤). التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٢٣.

(٥). صحيح البخاري: ١٧٢٧/٤ باب (سورة يوسف).

(٦). صحيح البخاري: ٢٢٥٣/٥ برقم ٥٧١٧ باب (ما ينهى عن التحاسد والتدابير)، صحيح مسلم: ١٠/٨ برقم ٦٧٠١ باب

باب (تحريم الظن والتجسس والتنافس).

جاء هنا في سياق التحرز من الوقوع في حسد الآخرين^(١)، وذكر الإمام الطبري أن التحسس الوارد في الآية - حيث لم يرد بصيغة المنهي عنه - هو بمعنى التماس الشخص والتعرف من خبره^(٢).

وقيل إن التحسس يعني "شدة التطلب والتعرف، وهو أعم من التجسس بالجيم فهو التطلب مع اختفاء وتستر"^(٣)، وفي الباب إن الإحساس من التحسس إذ يعني الوجود والرؤية، فيقال: هل أحسست صاحبك؟ أي هل وجدته أو رأيته؟ قال أبو العباس المقرئ: ورد لفظ الحس في القرآن على أربعة أضرب: الأول: بمعنى الرؤية، قال تعالى: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) [سورة آل عمران ٥٢]، وقوله تعالى: فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) [سورة الأنبياء ١٢]، أي: رأوه، وقوله [وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِصُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)]

سورة مريم ٩٨] أي: هل ترى منهم؟ الثاني: بمعنى القتل، قال تعالى □ إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ □ [سورة آل عمران ١٥٢] أي: تقتلونهم، الثالث: بمعنى البحث، قال تعالى فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) [سورة يوسف ٨٧]، والرابع: بمعنى الصوت، قال تعالى (لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) [سورة الأنبياء ١٠٢]، أي: صَوْتَهَا"^(٤).

المطلب الثالث: بين التجسس والتحسس.

ذكرت آنفاً أن هنالك صلة بين كلمتي التجسس والتحسس بالحاء، وهي اجتماعهما في معنى البحث والتقصي والتتبع، بيد أن للعلماء تفصيل في بيان هذه الصلة، آثرت أن أضعه في هذا المقام وصولاً إلى تجلية المعنى المراد من كلمة (التجسس) التي هي موضوع البحث، والله تعالى ولي التوفيق:

(١). ينظر: شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي .

دمشق، ١٩٨٣م، ط ٢: ١١١/١٣ . ١١٢ باب (تحريم اللعب بالنرد).

(٢). ينظر: تفسير جامع البيان عن تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة . بيروت، ٢٠٠٠م، ط ١: ٢٣٢/١٦.

(٣). تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، مؤسسة التاريخ العربي . بيروت، ٢٠٠٠م، ط ١: ١١٠/١٢.

(٤). تفسير اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية . بيروت، ١٩٩٨م، ط ١: ٢٥٧/٥.

قرئت هذه الكلمة بالجمع المعجمة والحاء المهملة، حسب ما جاء في بعض كتب القراءات وكتب التفسير، جاء في كتاب الإتحاف أنها قرئت بالحاء: "ولا تحسسوا بالحاء المهملة من الحس الذي هو أثر الحس وغايته"^(١)، وقال القرطبي أنها قرئت بالحاء، واختلفوا في مدى كونهما بمعنى واحد أو بمعنىين، فقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما من الأخرى، لأن التجسس البحث عما يكتم عنك، وقيل: رجل جاسوس، إذا كان يبحث عن الأمور، وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه، وقول آخر في الفرق بينهما: أنه بالحاء تطلبه لنفسه، وبالجمع أن يكون رسولاً لغيره"^(٢).

والتجسس غالباً ما يستعمل في الشر، والتجسس يستعمل في الخير، وقد يستعمل كل منهما في الشر^(٣)، قال ابن كثير في تفسيره نقلاً عن الأوزاعي: "التجسس هو البحث عن الشيء، والتجسس هو الاستماع إلى حديث القوم أو يتسمع على أبوابهم"^(٤)، وقال الغزالي في الإحياء: "التجسس في تطلع الأخبار والتجسس بالمراقبة بالعين"^(٥)، وقيل إن الجاسة والحاسة بمعنى واحد، وجمعها جواس وحواس بالجمع وبالحاء على الترتيب، وهي ما يستشعر بها الإنسان، والجواس عند الاوائل هي الحواس^(٦)، كما أن التجسس هو البحث عما هو مكتوم، والتجسس طلب الأخبار والبحث عنها، وهنا أيضاً يجتمعان حيث أن معناهما متّحد، وهو البحث عن الأخبار ومعرفة^(٧)، إلا أن هذا الإتحاد يخضع إلى تفصيل من قبل العلماء، نتيجة لفهم النصوص التي احتوت على هذه الألفاظ، والتجسس هو التفتيش أو البحث في بواطن الأمور، أما التجسس فهو ما يدركه الإنسان ببعض حواسه، كما أن التجسس هو قيام الشخص بالطلب والبحث لغيره، أما

(١) . إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي، تحقيق: انس مهرة، دار الكتب العلمية . بيروت، ١٩٩٨م، ط١: ١/٥١٣، ينظر: معجم القراءات: د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين . دمشق، ٢٠٠٢م، ط١: ص ٨٧ .

(٢) . تفسير القرطبي: ٣٣٣/١٦ .

(٣) . ينظر: تفسير القرآن العظيم: الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، مؤسسة قرطبة . القاهرة، ٢٠٠٠م: ١٣/١٥٨، تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي . بيروت: ١٣/٤٤ .

(٤) . تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١٣/١٥٨ .

(٥) . إحياء علوم الدين: ١٧٨/٢ .

(٦) . ينظر: لسان العرب: ٦/٤٩ مادة (حسس)، المعجم الوسيط: ١/١٢٢ مادة (جس)، تفسير روح المعاني: ٢٦/١٥٧، التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ص ٢٢ .

(٧) . ينظر: لسان العرب: ٦/٤٩، الكلبيات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة . بيروت، ١٩٩٨م: ١/٣١٣ فصل (التاء)، المعجم الوسيط: ١/١٢٢، تفسير الكشاف: ٤/٣٧٥، تفسير القرطبي: ١٦/٣٣٣ .

التجسس فهو الطلب والبحث لنفسه^(١)، وهو البحث عن العورات، أما التجسس فهو الاستماع إلى حديث أناس وهم كارهون^(٢)، ويمكن أن يقال بأن التجسس مما يتطلب معه استخدام بعض الأدوات أو الأجهزة التي يمكن أن تكون السبب في استحصال المعلومات بناءً على التطور الذي رافق هذا المصطلح في كل زمان ومكان، وأصبح معروفاً بين الأوساط كافة، بخلاف التجسس بالحاء.

ومن المعلوم أن كلمة التجسس وردت في سياق نهى المؤمنين عن استخدام هذا الخلق في تتبع عورات المسلمين والاطلاع على أسرار بعضهم البعض بغير حق، لما لهذا الأمر من تسبب في مشاكل اجتماعية ضمن نطاق الدولة الإسلامية، ذلك أن القرآن وصف الجماعة التي يدب فيها هذا المرض بصفة الإيمان والأخوة، وقد وردت كلمتا (التجسس والتجسس) في سياق النهي سويًا، وذلك في الحديث المروي عن النبي . عليه الصلاة والسلام، حيث قال: (ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخواناً)^(٣).

من هنا يمكن القول أن التجسس هو بحث وتتبع الأخبار وتفحصها بصورة خفية، وقد ذكر الإمام الشوكاني أن سبب تسمية الجاسوس بـ (العين) لأن عمله بعينه، أو لشدة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها، كأن جميع بدنه صار عيناً^(٤)، ويقولون: بث الأمير عيونه يريدون جواسيسه ذلك أن العين ما في الإنسان لتلك المهمة، ولم تذكر الجوارح الأخرى لأنها ليست كالعين في ذلك^(٥)، فالجاسوس بالنسبة لبلده أو مواطنيه يكون بصورتين: فإما أن يكون عمله محموداً ويكون بهذا جندياً مخلصاً وفياً لأهله ووطنه، وإما أن يكون عمله مذموماً، فهذا يكون عدواً خطيراً، وقد تكون عقوبته فقدان حياته مقابل ما قام به من عمل، ولهذا الأمر دوافع ومقومات تختلف باختلاف الأحوال، وتختلف الأحكام تجاهه بحسب الأحوال، وهذا ما سأليناه في مفاصل لاحقة من هذا البحث بإذن الله تعالى.

المطلب الرابع: لمحة تاريخية عن التجسس وتطوره.

إن صفة التجسس أو العمل الاستخباري ليست بالشيء الجديد، فهي غائرة في القدم، عرفها الإنسان وفهم أساليبها بنفس المفهوم الحديث، وقد بذل الحكام الجهود الكبيرة منذ عصور قديمة للحصول على

(١) . ينظر: لسان العرب: ٤٩/٦، تفسير الكشاف: ٣٧٥/٤، تفسير القرطبي: ٣٣٣/١٦، تفسير الألوسي: ١٥٧/٢٦.

(٢) . ينظر: لسان العرب: ٤٩/٦، تفسير الألوسي: ١٥٧/٢٦.

(٣) . ينظر: صحيح البخاري: ٢٢٥٣/٥ برقم ٥٧١٧ باب (ما ينهى عن التحاسد والتدابير)، وينظر: صحيح مسلم: ١٠/٨ برقم ٦٧٠١ باب (تحريم الظن والتجسس والتنافس).

(٤) . نيل الاوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إدارة الطباعة المنيرية: ١١٢/٨، ينظر: فتح الباري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة . بيروت، ١٣٧٩هـ: ١٦٨/٦ باب (الحربي إذا دخل دار الإسلام).

(٥) . أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ)، دار الفكر . بيروت، ١٩٩٥م: ٢٩/٩.

المعلومات عن البلدان المنافسة لهم، فكانت الجاسوسية سلاحاً من أسلحة الحرب، وكانت جيوش هؤلاء الحكام حريصة في التعرف على المعلومات عن تلك الجيوش المخاصمة لها، أي أن الدولة التي كانت تقاتل أو تستعد للقتال تستخدم الجاسوسية وسيلة من وسائل إبقاء عيون ساهرة ترأق العدو وقت السلم والحرب^(١)، ولم يكن الحصول على المعلومات عن العدو صعباً، حيث كان ميسوراً أثناء أو قبل الحملات العسكرية، كما إن العمليات الاستخبارية أو (التجسس) قديماً وحديثاً عنصراً أساسياً في تزويد الحكومات بالمعلومات للتعرف على طبيعة عمل مواطنيها وتعاملهم فيما بينهم داخل حدود الدولة، وطبيعة اتصالاتهم بغيرهم خارج حدودها، وكذلك يمكن للحكومات من خلال الأعمال الاستخبارية التعرف على نوايا العدو وعن استعداداته^(٢).

ولا يخفى أن القرآن الكريم أشار إلى الإفادة من العمل الاستخباري، من ذلك ما جاء في سورة النمل في قصة سيدنا سليمان بن داود - عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام - مع الهدد وملكة سبأ، قال تعالى وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) [سورة النمل ٢٠ - ٢٨]، فالآيات فيها دليل على الفائدة التي تمت الإشارة إليها، حيث استفاد سليمان عليه السلام من خبر الهدد، فتعرف خلاله على سمات وشخصية الملكة وحاشيتها، والملاحظ أن الهدد باعتباره أحد الجنود الذين سخرهم الله تعالى لسليمان عليه السلام عرض مفاجأة لم يكن يعلمها سليمان عليه السلام^(٣).

وقد كان العمل الاستخباري سائداً عند العرب قبل البعثة، فكانوا يستخدمون العيون والجواسيس لجمع المعلومات في الحروب فيما بينهم، حيث كانوا يرسلون المخبرين الذين يقومون بجمع المعلومات عن أعدائهم وذلك فيما يتعلق بالعدة والعدد والمواقع، "ولما كانت المباغثة من أهم وسائل كسب الحرب والحصول على

(١) ينظر: الحرب الخفية (فلسفة الجاسوسية ومقاومتها): ص ١٢، ينظر: الباحثون عن الأسرار: ص ٢١.

(٢) ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ص ٤٠٣.

(٣) ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ص ٤٩ - ٥٠.

الربح، كان من أهم أسباب نجاحها التكتّم والتستر ومعرفة قوة العدو ومواقع ضعفه، عمد الجاهليون إلى استخدام العيون للتجسس على العدو، يرسلونهم في صور شتى، في صورة تجار أو مسافرين أو على هيئة سرايا صغيرة تقتص آثار العدو، وتسأل من يرون من المسافرين عن علمهم بأحوال العدو، أو تقبض على ربايا العدو ليحققوا معهم وليحصلوا منهم عن معلومات تفيدهم في إعداد خطة الحرب أو الغزو، وفي ضوء هذه المعلومات يرتب القادة طريقة مباغته العدو ومحاربته لإنزال الضربة القاصمة به^(١).

يروى أن رجلاً من بني هلال أظهر أنه جاء يريد جبرتهم، وكانوا قد غزوا قومه وساقوا إبلهم، فقبلوا إيواؤه، وبقي عندهم أمداً حتى جمع كل ما احتاج إليه من معلومات عنهم، ثم خرج منهم وعاد إلى قومه فاستفادوا بما كان قد جمعه عن بني خزاعة، فغزوه وانتصروا عليهم^(٢).

أمّا في عهد الرسالة وحينما أعلن النبي عليه الصلاة والسلام الدعوة وجهر بها، بدأت القبائل تعترض هذا الدين الجديد وتضع الخطط للقضاء عليه قبل تأثر الناس به والدخول فيه، ومع أن النبي عليه الصلاة والسلام كان مهتماً بنشر الدين الحنيف بالطريقة السلمية إلا أن المعطيات التي كان يواجهها المسلمون آنذاك كانت تشير أحياناً إلى ضرورة وقوع المواجهة بينهم وبين الكفار خاصة قريش التي كانت تتزعم العرب، "ولكن عين النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن تغفل عنهم ولو للحظة، حيث كان يرصد تحركاتهم وسكناتهم ويتحسس أخبارهم عن طريق شبكة منظمة من العيون والجواسيس المبتوثين في مناطق الأعداء، التي ساهمت بشكل كبير وفعال في وضع النبي صلى الله عليه وسلم في الصورة دائماً، فكان باستمرار يسبق الأحداث ويفاجئ أعداءه بمبادرة عجيبة تقضي على مخططاتهم العدوانية في مهدها"^(٣)، وقد أذن الله تعالى للمسلمين بالدفاع عن دينهم وأنفسهم^(٤)، فقال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) سورة البقرة ١٩٠} فحصلت الغزوات والمعارك المعروفة عبر التاريخ، وقد استعملت الجيوش في تلك المعارك كل الوسائل العسكرية كان أولها التجسس أو العمل الاستخباري الذي يعدّ من الأمور الهامة في المعارك وخاصة فيما يتعلق بالتخطيط والإعداد المسبق^(٥).

(١) . ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، دار الساقى، ٢٠٠١م، ط٤: ٨٠/١٠، ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ص ٥١.

(٢) . ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ١٠/١٠٨، الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ص ١٤.

(٣) . السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: بريك بن محمد بريك أبو مائلة العمري، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، ١٩٩٦م، ط١: ١٥٤/١.

(٤) . ينظر: تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: ٣/٥٦١ . ٥٦٢، تفسير القرطبي: ٣٤٧/٢.

(٥) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ص ٥٤.

ولا يخفى أن ما يشهده عصرنا الحاضر من تطوّر في مجال العمل التجسسي أو الاستخباري، كما إنه ليس بغائب عن الأنظار ما يشهده العالم من تناحر بين الدّول، وتسبق^(١) في كل المجالات وأهمها المجال الاقتصادي والعسكري، الذي دفع كثيراً من الدّول - الغربية على وجه الخصوص - إلى أن تسلك مجال التجسس من أجل المكاسب الاقتصادية والعسكرية، وقد تنوعت طرق التجسس وفقاً للتطور التكنولوجي، حيث توجد طرق للتجسس منها ما يسمّيه بعضهم بـ (التجسس الفوقي) أو (التجسس من فوق) وذلك ابتداءً بالمنطاد مروراً بالطائرات العادية إلى طائرات التجسس والأقمار الصناعية^(٢)، كما توجد الوسائل الأخرى للتجسس مثل أجهزة الاتصال وزرع أدوات استراق السمع بصيغ وأشكال مختلفة لا يمكن معرفتها، بالإضافة إلى استخدام النواظير الليلية ذات العدسات المتطورة^(٣)، وكذلك التطور في مجال شبكات الاتصال (الإنترنت) وما يرافقها من إمكانية التجسس على تداول البيانات والاتصالات التي تجري خلال هذه الشبكات، كتبت سبأ عبد الله باهبري في مجلة الحرس الوطني: "اليوم هناك ما هو أخطر من موضوع التنصت على المكالمات الهاتفية، إنه الاحتمالات الحقيقية لاختراق شبكات نقل المعلومات ومراكز حفظ السجلات الإلكترونية في الحاسبات الآلية، إذ أن ضرورات الاتصال العالمي بين الحاسبات الآلية تجعل إمكانية الدخول إلى السجلات من موقع يبعد عنّا آلاف الأميال أمراً قابلاً للحدوث"^(٤).

كتبت إحدى المجالات العربية مقالاً عن اكتشاف أكبر شبكة تجسس في العالم أن وكالة الأمن القومي الأمريكي NSA - تشرف على شبكة تجسس إلكتروني يطلق عليها (ECHELON)، حيث تقوم باعتراض جميع الاتصالات في العالم، وتستعمل لذلك عدداً كبيراً من الأجهزة الإلكترونية والعناصر البشرية^(٥) بالتعاون مع أجهزة الاستخبارات في بريطانيا وكندا وأستراليا ونيوزلندا، وظيفة هذه الشبكة هو رصد المحادثات التي تجري حول العالم عبر شبكات الاتصالات الرئيسية - الأرضية والفضائية - المتمثلة بالهواتف النقالة ورسائل الفاكس والتلكس والبريد الإلكتروني E.mail، ونقلت المجلة "إن الشكوك تساور بعض أقرب الحلفاء لأمريكا في أوروبا إزاء وجود مركز تنصت أمريكي ضخم، أقيم في خلاء لا تسكنه إلا الرياح والمستنقعات شمالي إنجلترا، ويتجسس في سرية على حكومات وشركات ومواطنين"، وتتميز هذه الشبكة بتقنيات عالية، قادرة على رصد ملايين المحادثات الهاتفية ورسائل الفاكس والبريد الإلكتروني، فالنظام فيها يعترض كميات هائلة من الاتصالات دون تفرقة، ويستخدم أجهزة الكمبيوتر للتعرف على

(١) . ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ص ٢٦٥.

(٢) . ينظر: تقنية التجسس: غراهام يوست، ترجمة الرائد إلياس فرحات، دار الحرف العربي . بيروت، ١٩٩٠م، ط٢: ٦.

(٣) . ينظر: تقنية التجسس: ١٧٧.

(٤) . مجلة الحرس الوطني: التجسس من خلال اختراق شبكات الاتصالات: سبأ عبد الله باهبري، العدد ٢١٨

أغسطس ٢٠٠٠م: ٥٠.

(٥) . ينظر: تقنية التجسس: ٢٤٠.

الرسائل أو المحادثات المهمة واستخراجها، وتذكر المجلة أن لهذه الشبكة القدرة في السيطرة على بقية الوكالة داخل الشبكة^(١).

ولا يعني ما تمتاز به هذه الشبكة من تقنيات وغيرها، إنما الذي يهمنا في هذا البحث هو مدى التطور الحاصل في مجال التجسس وما تتبعه هذه الدول المنتفذة في العالم في الوقت الحاضر، وطبيعة علاقاتها مع الدول الأخرى، وظاهر الأمر أن الأساس في تعاملها هو التجسس ومحاولة ادعاء قصص مكذوبة لإضفاء صفة الشك في علاقات الدول بعضها مع البعض الآخر، وهذا ما بيّنته المجلة في نهاية المقال، إذ نقلت أنه من خلال فحص تفاصيل المعلومات التي تم الحصول عليها حول عمليات تخابر نيوزلندا مع حلفائها، تبين أن قسماً كبيراً منها يتعلق بعمليات إرهابية محتملة، والقسم الأهم يتعلق بمعلومات اقتصادية، وتحظى المعلومات السياسية والحربية باهتمام ملحوظ، بالإضافة إلى الأهداف السهلة المتمثلة بالأشخاص والمنظمات والحكومات^(٢).

ويمكن أن تتبين أهمية التجسس وخطورة التعامل به في هذا العالم التقني العجيب أن هنالك من الدول من يعتمد اعتماداً كلياً على التجسس بسبب تطورها التكنولوجي، من أجل البقاء والهيمنة على العالم، وهذا التعامل فيه من الخطورة ما يجعل تأثيره مباشراً على حريات الشعوب وأمنها.

المبحث الثاني

المطلب الأول (التجسس المشروع وأحواله) وفيه فرعان:

الفرع الأول: في حالة الحرب والدفاع عن دولة الإسلام.

الإسلام هو دين سلام، والسبيل إلى استقرار السلام هو الوفاء بالعهد، حيث قال تعالى: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) [سورة نحل ٩١]، وقال تعالى: الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) [سورة الرعد ٢٠]، ويسعى ديننا الحنيف أن يكون السلام هو الحالة السائدة، أما الحروب فتعتبر حالات طارئة؛ وضرورة لا يلجأ إليها المسلمون إلا كراهة، وذلك في حال كونها استنفدت كل الوسائل السلمية التي تحول دون الاضطرار إلى الحرب^(٣)، وبعد أن تكون الحرب أمراً واقعاً، لا بد من البدء باستخدام الوسائل الحربية لتحقيق الانتصار بأقل ثمن، فهناك مقدمات واجب القيام بها قبل خوض المعركة، من أجل تحقيق النصر للمسلمين والخذلان للكافرين، وبأيسر التكاليف وأقلها، صيانة للدماء

(١) . ينظر: مجلة (وجهات نظر في الثقافة والسياسة والفكر): أكبر شبكة تجسس إلكترونية في العالم: نيكى هاجر، العدد

١٥، أبريل ٢٠٠٠م، السنة الثانية: ٢٢ . ٢٤.

(٢) . ينظر: مجلة (وجهات نظر في الثقافة والسياسة والفكر): ختام المقال السابق ٢٤.

(٣) . ينظر: سلوك المالك في تدبير الممالك: شهاب الدين أحمد بن أبي الربيع، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان . دمشق، ١٩٩٦م: ٩٩.

والأموال من الهدر والضياع^(١)، قال الإمام محمد أبو زهرة: "الحرب أبغض الأشياء إلى النفس المؤمنة، ذلك أن قوام الحرب قتل النفس البشرية، والمؤمن لا تسوغ له نفسه أن يهدم ما بناه الله تعالى، ولذلك ذكر القرآن الكريم أن الحرب أمر مبغض للمؤمنين، لا يحبونه ولا يرتضونه لذاته، ولكن يقبلونه إذا أمر الله تعالى به وكتبه عليهم، لأنه خير لهم، فالحرب في الإسلام ضرورة أوجبها قانون الرحمة العادل وقانون الأخلاق والسلوك الإنساني المستقيم، وعندما نتجه بتفكيرنا هذا الاتجاه، نجد كل نصوص القرآن تمنع الاعتداء ابتداءً، وتمنع الاعتداء في أثناء القتال وقبل القتال^(٢)، وقد أجاز ديننا الحنيف في مثل هذه الحالة أموراً حكمها التحريم في ظروف أخرى غير الحرب، ومن الأمور التي أجاز الشرع التعامل بها مع الاعداء: التجسس والخداع والكذب عليهم، وكما هو معلوم أن السنة النبوية - على صاحبها أفضل الصلاة والسلام - هي الرافد الثاني بعد كتاب الله التي استمد منها العلماء بعض الأحكام الشرعية، ومن هذه الأحكام جواز التجسس على الاعداء، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام في حال الحرب يستعين بالجواسيس والعيون الذين كان يبتهم لتقصي الأخبار عن العدو وتحركاته ومخططاته.

روى البخاري في صحيحه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم يدل على جواز التجسس على العدو، وذلك في غزوة الخندق، جاء في الحديث: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاحزاب: (من يأتيينا بخبر القوم؟)، فقال الزبير: أنا، ثم قال: (من يأتيينا بخبر القوم؟)، فقال الزبير: أنا، ثم قال: (إن لكل نبي حوارياً، وأنا حوارِي الزبير)^(٣)، وفي رواية لمسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحذيفة رضي الله عنه: (اذهب فأنتي بخبر القوم ولا تدعهم على)^(٤).

وقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يحذر عدوه كثيراً، ولذلك كان يضع العيون ويستفيد من المعلومات عن العدو، كما حصل مع عمه العباس بن عبد المطلب في غزوة أحد، حيث كان ينقل للنبي عليه الصلاة والسلام أخبار قريش، وبعد غزوة أُحُد بعث النبي صلى الله عليه وسلم من يجسّ له خبر قريش ويتقرب تحركاتهم بعد انتهاء المعركة، فكان علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - مبعوثه في هذه

(١) . العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة: د. محمد علي الحسن، مكتبة النهضة الإسلامية . عمان، ١٩٨٢م، ط٢:

(٢) . من أمثلة ذلك: قول الله عز وجل وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْمُعْتَدِينَ [سورة البقرة ١٩٠].

(٣) . العلاقات الدولية في الإسلام: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي . القاهرة، ١٩٩٥م: ٩٥ ، ينظر: الفهم الوسطي للجهاد

في الفكر الإسلامي: د. فؤاد محسن الراوي، دار الضياء . عمان، ٢٠٠٩م: ٣٧٧.

(٤) . صحيح البخاري: ١٠٤٦/٣ برقم ٢٦٩١ باب (فضل الطليعة).

(٥) . صحيح مسلم: ١٧٧/٥ برقم ٤٧٤١ باب (غزوة الأحزاب).

المهمة، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: (أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأنأجزنهم)، قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة^(١).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي عليه الصلاة والسلام بعث عشرة من العيون في غزوة بدر يتجسسون له^(٢)، كما جاء في السيرة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث عبد الله بن حرد الأسلمي عيناً على خزاعة، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم، حتى يعلم علمهم، ثم يأتيهم بخبرهم، فانطلق ابن أبي حرد فدخل فيهم، فأقام فيهم حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر^(٣).

يتبين لنا مما تقدم عرضه أن التجسس على العدو جائز - نظراً لفعل النبي عليه الصلاة والسلام - من أجل حماية الدولة الإسلامية من الاعتداء، لأن التخطيط السليم والصحيح في المعركة من الأمور الهامة، فمن مقومات التخطيط السليم معرفة أسرار العدو وتحركاته وكشف مخططاته، وأن يكون المسلمون على اطلاع تام بتحركات الأعداء ومخططاتهم، لذا يعد التجسس في الحرب ضرورة من الضرورات، وهو ما تلجأ إليه كثير من الدول، والذين يتجسسون على العدو يعدون من الرجال الأبطال الذين لا يقل شأنهم عن شأن من يقاتل في الصفوف المتقدمة في المعركة، فإنهم اختاروا خدمة أوطانهم ودينهم وأهلهم، ودفع الضرر عنهم بهذا الطريق الذي ربما يدفعون فيه أرواحهم ثمناً، وعملهم هذا من الأعمال الجهادية التي يثاب صاحبها أجراً كأجر المرباط، وفي سنن ابن ماجه أن أبا هريرة رضي الله عنه روى عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله: (من مات مرباطاً في سبيل الله أجرى عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع)^(٤).

على هذا الأصل يعد التجسس على العدو نوع من أنواع الإعداد التي أمر الله تعالى بها، فقد قال عز وجل: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) [سورة الأنفال ٦٠]، ونختم هنا بقول

(١) . السيرة النبوية لابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام البصري (ت ٢١٣هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٥م،

ط ٢: ٩٤/٢، ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٦٥.

(٢) . صحيح البخاري: ١١٠٨/٣ برقم ٢٨٨٠ باب (هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر ومن صلى ركعتين عند القتل).

(٣) . السيرة النبوية لابن هشام: ١٠٨/٥ باب (غزوة حنين سنة ثمان بعد الفتح).

(٤) . سنن ابن ماجه: محمد بن زيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر . بيروت: ٩٢٤/٢ برقم

٢٧٦٧ باب (فضل الرباط في سبيل الله)، ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٤٠-١٤١.

الإمام ابن عاشور في تفسيره: "فالمنهي عنه هو التجسس الذي لا ينجر منه نفع للمسلمين، أو دفع ضرر عنهم، فلا يشمل التجسس على الأعداء، ولا تجسس الشرط على الجناة واللصوص"^(١).

الفرع الثاني: مراقبة الدولة لأهل الريب حفاظاً على أرواح مواطنيها:

من المعلوم أن الشريعة الإسلامية لا تجيز التجسس على المسلمين ولا على غيرهم في أي وقت وبأي مبرر ولا تجيز أيضاً دخول المنازل إلا إذا اقتضت الضرورة، والنهي الوارد في النصوص يستوي فيه الفرد والجماعة، لذا فإن الدولة ليس لها الحق في التجسس على عورات الناس أو أسرارهم إلا في حالة توفر الأسباب الموجبة لذلك وفق حدود الشرع، قال سيد قطب: "ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر لانتهاك حرمان الأنفس والبيوت والأسرار والعورات، حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس"^(٢)، إلا أن الدولة مكلفة بحماية أفرادها والمقيمين فيها، وعليها أن تتعقب المجرمين وأهل الريب، وتدرأ خطرهم وشرهم وأذاهم بطرق هادئة ومدروسة، لتوفر للناس عيشاً آمناً، وانطلاقاً من هذه المسؤولية فإن للدولة حق المراقبة الدقيقة بما يتوافر لديها من أجهزة لتهيئة الاستقرار والأمن للمجتمع^(٣).

وبما أن المجتمع الإسلامي في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام كان يشع فيه نور النبوة، إلا أنه لم يخل من وجود المنافقين وأهل الريب الذين كانوا يشكلون خطراً على الدولة الإسلامية، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم على علم بأحوال هؤلاء وأعمالهم من خلال ما يصله عنهم عن طريق أفراد من الصحابة رضي الله عنهم كانوا عيوناً وأصحاب سر له، وكان صاحب سرّه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه الذي يعلم بأسماء المنافقين وأحوالهم^(٤).

وقد ذكر الإمام الماوردي أنه ليس للحاكم أن يتجسس على الرعية سواء أكانوا مسلمين أم غير ذلك، لأن النهي في قوله تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) [سورة الحجرات ١٢] نهى عام عن التجسس بكل أنواعه، سواء أكان من الحاكم أم

(١) . التحرير والتنوير: ٢٦/٢١١ - ٢١٢.

(٢) . في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥ هـ)، دار الشروق . بيروت، ١٩٩٦ م، ط ٢٥:

٣٣٤٦/٦.

(٣) . ينظر: حماية الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية: محمد راكان الدغمي، دار السلام للطباعة والنشر . القاهرة، ١٩٨٥ م،

ط ١: ص ٦٥ . ٦٦، التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٢٩.

(٤) . التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٣٠ - ١٣١.

المحكوم إلّا إذا غلب على الظن استمرار بعض القوم بالمحظورات لآثار ظهرت أو أمارات دلت على ذلك، ففي هذه الحالة جاز التجسس أو تتبع الأخبار، وقد جعل هذا الأمر منوط بضربين:

• الأول: أن يكون ذلك في انتهاك حرمة يفوت استدراكها، مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلاً خلا بامرأة ليزني بها، أو برجل ليقتله، فيجوز له في مثل هذه الحالة أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث، حذراً من فوات ما لا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات.

• الثاني: ما خرج عن هذا الحد وقصر عن حد هذه الرتبة، فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه، حكى أن عمر رضي الله عنه: دخل على قوم يتعاقرون على شراب ويوقدون في أخصاص، فقال: نهيتكم عن المعاقرة فعاقرتهم، ونهيتكم عن الإيقاد في الأخصاص فأوقدتم، فقالوا: يا أمير المؤمنين قد نهاك الله عن التجسس فتجسست، ونهاك عن الدخول بغير إذن فدخلت، فقال عمر رضي الله عنه: هاتان بهاتين وانصرف ولم يتعرض لهما^(١).

وكتب فخر الدين إبراهيم بن النعمان للظاهر بيبرس قال: "وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب، وحكام وأصحاب رأي، من أصحاب السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيباً واجعل في تصرفاته رقيباً، وسل عن أحواله ففي القيامة تكون عنه مسؤولاً، وبما أجرم مطلوباً، ولا تولّ منهم إلّا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوباً"^(٢).

إن الإسلام وضع الأحكام التي تؤدي إلى صلاح المجتمع وتحسين أموره، وأول اهتماماته هو صيانة الأعراض والدماء والأموال، فإذا وقعت جريمة ولم يكن المجرم ظاهراً، فيتوجب على الدولة أن تتبع أسلوب التجسس أو الاستخبار حتى يتم إظهار المجرم، وإذا ظن وقوع الجريمة كأن يكون بإخبار من هو ثقة، لزم التجسس لتفادي وقوعها، أو خوفاً من فوات تداركها، جاء في نهاية المحتاج: "وليس لأحد البحث والتجسس واقتحام الدور بالظنون، نعم إن غلب على ظنه وقوع معصية ولو بقريضة ظاهرة كإخبار ثقة جاز له بل وجب عليه التجسس إن فات تداركها كقتل وزنا، وإلا فلا"^(٣)، وقال الإمام الزمخشري في تفسيره: "فإن قلت: فإذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب إنكاره؟ قلت: ذلك مستثنى بالدليل"^(٤).

(١). الأحكام السلطانية: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠هـ)، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٦٦م، ط ٢: ٢٥٣، والأخصاص: بيوت من القصب في البصرة، ينظر: المعجم الوسيط: ٣٢٨/١.

(٢). صبح الأعشى في صناعة الإنشاء: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الفكر - دمشق، ١٩٨٧م، ط ١: ١١٨/١٠.

(٣). نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة ابن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير (ت ١٠٠٤هـ)، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٤م: ٤٨/٨ - ٤٩.

(٤). تفسير الكشاف: ٢٣٣/٣، ينظر حماية الحياة الخاصة: ٦٦.

المَطْلَبُ الثَّانِي (التَّجَسُّسُ غَيْرُ الْمَشْرُوعِ وَأَحْوَالُهُ) وفيه فرعان:

الفرع الأول: التجسس المفضي إلى الاطلاع على عورات الناس:

أجمع العلماء على تحريم التجسس على الناس، لورود النصوص الصريحة الدالة على هذا التحريم، إلا ما تم عرضه في المطلب الأول من هذه الدراسة، حيث قال بعض العلماء بجواز التجسس في أحوال مخصوصة، وفي هذا المقام سأتناول التجسس غير المشروع، والأحوال التي حُرِّمَ فيها، وأقوال العلماء فيه، والأحكام المترتبة عليه في كل حالة، وستكون الدراسة في حالتين من الحالات التي يَحْرُمُ فيها، ونهى شرعنا الحنيف عن التجسس الذي يؤدي إلى فضح عورات الناس، بصرف النظر عن دين هؤلاء الناس، لقول الباري عز وجل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) [سورة الحجرات ١٢]، قال صاحب التحرير والتنوير: "وإذ قد اعتبر النهي عن التجسس من فروع النهي عن الظن فهو مقيد بالتجسس الذي هو إثم أو يفضي إلى الإثم، وإذا علم أنه يترتب عليه مفسدة عامة صار التجسس كبيرة، ومنه التجسس على المسلمين لمن يبتغي الضرر بهم" (١)، وهذا النهي هو عام أي أنه شامل لكل أنواع التجسس، وقد ورد النهي أيضاً في السنة النبوية - على صاحبها أفضل صلاة وأتم تسليم - حيث قال: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تتاجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً) (٢)، كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته) (٣)، وقد جاء في وصية أبي بكر رضي الله عنه ليزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام: واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائهم، ولا تَجَسَّسْ عسكرياً فتنفضحه، ولا تهملنه فتفسده" (٤)، وفي كلام لسيد قطب يصوِّر فيه طبيعة النهي عن هذا الخلق قال: والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن، وقد يكون حركة ابتدائية لكشف العورات والاطلاع على السوءات، والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم، وتماشياً مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب، ولكن الأمر

(١) . التحرير والتنوير: ٢٦/٢١١.

(٢) . صحيح البخاري: ٥/٢٢٥٣ برقم ٥٧١٩ باب (ما ينهى عن التحاسد والتدابير).

(٣) . مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق:

شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة. بيروت، ١٩٩٩م، ط ٢: ٣٣/٢٠ برقم ١٩٧٧٦ باب (حديث أبي برزة

الأسلمي)، ينظر: تفسير القرطبي: ١٦/٣٣٣.

(٤) . تاريخ مدينة دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: محب الدين

العمرى، دار الفكر. بيروت، ١٩٩٥م: ٦٥/٢٤٨.

أبعد من هذا أثراً، فهو مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسية في نظامه الاجتماعي وفي إجراءاته التشريعية والتنفيذية، إن للناس حرياتهم وحرمانهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال، ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرهم، آمنين على عوراتهم، ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمان الأنفس والبيوت والأسرار والعورات^(١).

ومن أبرز الخصوصية التي حفظها الإسلام حق الفرد في حرمة مسكنه، وجعل له الحق في حياته الخاصة، ووضع الآداب العامة التي أوجب على الناس الالتزام بها في التعامل فيما بينهم خلال النصوص التي وردت في القرآن الكريم وأخرى في السنة النبوية المطهرة وآراء الفقهاء التي ترسم الدعائم الصحيحة في خصوصيات الناس، وعدم الاطلاع عليها دون إذن من أصحابها، وإذا حصل مكروه للمطلع فليس على صاحب المسكن شيء، قال شريح القاضي^(٢): "إذا دخل رجل دار قوم بغير إذنهم، فعقره كلبهم فلا شيء عليهم"^(٣)، ولا شك في أن حرمة المؤمن وما يخصه من أشد الحرمات، حيث يروى أن ابن عمر - رضي الله عنه - نظر يوماً إلى الكعبة فقال: "ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة منك عند الله"^(٤).

قال الإمام ابن عاشور: "والتجسس من المعاملة الخفية عن المتجسس عليه، ووجه النهي عنه أنه ضرب من الكيد والتطلع على العورات، وقد يرى المتجسس من المتجسس عليه ما يسوؤه فتنشأ عنه العداوة والحقد، ويدخل صدره الحرج والتخوف بعد أن كانت ضمانته خالصة طيبة وذلك من نكد العيش، وذلك ثلم للأخوة الإسلامية، لأنه يبعث على إظهار التنكر، ثم إن اطلع المتجسس عليه على تجسس الآخر ساءه، فنشأ في نفسه كره له، وانثلمت الأخوة ثلثة أخرى كما وصفنا في حال المتجسس، ثم يبعث ذلك على انتقام

(١) . في ظلال القرآن: ٦/٣٣٤٥ . ٣٣٤٦.

(٢) . شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمية: من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الاسلام، أصله من اليمن، ولي القضاء في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، وكان ثقة في الحديث، مأموناً في القضاء، عَمَّر طويلاً وتوفي بالكوفة سنة ٧٨هـ، ينظر: سير أعلام النبلاء: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ)، خرج أحاديثه واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة - مصر، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م: ٤٩/٥ برقم ٤٠٠.

(٣) . أخبار القضاة: أبو بكر محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي البغدادي، الملقب بـ (وكيع) (ت ٣٠٦هـ)، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى . مصر، ١٩٤٧م، ط١: ٢/٢٤٨، ينظر: حماية الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية: ٣١.

(٤) . صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي البستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة . بيروت، ١٩٩٣م، ط٢: ١٣/٧٥ برقم ٥٧٦٣ باب (الغيبة)، ينظر: الترغيب والترهيب: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد، تحقيق: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية . بيروت، ١٤١٧هـ، ط١: ١٦٩/٣ باب (كتاب الحدود وغيرها).

كليهما من أخيه^(١)، ونهى شرعنا الحنيف عن التجسس حتى على غير المسلمين، وكذلك نهى عن التجسس على العصاة إذا لم يظهر منهم ما يدل على عصيانهم، وأمرنا بحسن الظن والستر، قال الإمام الجصاص في تفسيره: "فقد اقتضى ذلك النهي عن تحقيق المظنون وعن إظهاره ونهى عن التجسس بل أمر بالستر على أهل المعاصي ما لم يظهره منهم إصرار"^(٢)، وقال الإمام القرطبي: "خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين، أي لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه بعد أن ستره الله"^(٣)، وقال في موضع آخر عند تفسير قول الله عز وجل فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) [سورة النور ٢٨]: "توعّد لأهل التجسس ولغيرهم النظر إلى ما لا يحل ولا يجوز"^(٤).

وقد أخرج أبو داود في سننه أنه قيل لابن مسعود . رضي الله عنه: "هذا فلان تقطر لحيته خمراً، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به"^(٥)، وقد وصف سيد قطب النص الذي جاء بالنهي عن التجسس بأنه كالسياج الذي يكفل الشارع من خلاله حماية حرمان الناس وحرمانهم وحقوقهم، فلا يمسه قريب أو بعيد تحت أي ستار أو ذريعة^(٦)، لذلك أجاز النبي صلى الله عليه وسلم أن تُفقأ عين من نظر إلى بيت غيره من نافذة أو غيرها ليتعرف ما بداخله بغير إذنهم، فعن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: (لو أن امرأً أطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقت عينه لم يكن عليك جناح)^(٧)، وقال عليه الصلاة والسلام في بيان خطورة هذا الفعل ومصير فاعله يوم القيامة: (ومن استمع إلى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه صب في أذنه الآنك^(٨) يوم القيامة)^(٩).

(١) . التحرير والتنوير: ٢٦/٢١١.

(٢) . تفسير أحكام القرآن للجصاص: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ١٤٠٥ هـ، ٥/٢٨٩.

(٣) . تفسير القرطبي: ١٦/٣٣٣، ينظر: تفسير الآلوسي: ٢٦/١٥٧.

(٤) . تفسير القرطبي: ١٢/٢٢٠.

(٥) . سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي . بيروت: ٤/٤٢٣ برقم ٤٨٩٢ باب (النهي عن التجسس).

(٦) . في ظلال القرآن: ٦/٣٣٤٦.

(٧) . صحيح البخاري: ٦/٢٥٣٠ برقم ٦٥٠٦ باب (من اطلع ببيت قوم ففقت عينه فلا دية له)، ينظر: صحيح مسلم: ١٨١/١ برقم ٥٧٦٩ باب (تحريم النظر في بيت غيره).

(٨) . الآنك: الرصاص المذاب وقيل هو القزدير، ينظر: لسان العرب: ١٠/٣٩٤.

(٩) . صحيح البخاري: ٦/٢٥٨١ برقم ٦٦٣٥ باب (من كذب في حلمه).

الفرع الثاني: التجسس لصالح الأعداء.

هذا النوع يعدّ من أخطر أنواع التجسس، إذ أن فاعله يعيش في كنف الدولة الإسلامية، ويأكل من خيراتها كباقي أفرادها - إن لم يكن أفضل منهم حالاً - ويطلع على ما يطلع عليه غيره، فهو ليس مكشوفاً للمسلمين ولا يعلمون بما يشكّله عليهم من خطر عظيم وتهديد جسيم، فإذا كان التجسس على عورات الناس وعلى أسرارهم في الظروف الطبيعية محرماً، فمن باب أولى أن يكون التجسس للعدو وموالاته وإطلاعه على أسرار الدولة وتزويده بالمعلومات أشدّ حرمةً، وذلك لما فيه من ضرر وتهديد لأرواح عديد من الناس الأمنين أو على مصالحهم المرتبطة بمؤسسات الدولة، "وعلى هذا فالمراد بالتجسس ليس هو مجرد الحصول على أية معلومات تتصل بأحوال المسلمين ونقلها إلى الدول غير الإسلامية، وإنما هو الحصول على تلك المعلومات التي من شأنها أن يستفيد منها العدو لإلحاق الضرر بالمسلمين مما له صلة بعوراتهم، أي نقاط الضعف في الجبهة الإسلامية"^(١)، ومن مقدمات أو مسوغات التجسس الموالاة للكفار التي نهى عنها الباري الباري عز وجل في محكم القرآن، حيث قال جل شأنه يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) [سورة المائدة ٥١]، ثم يأتي الخطاب بالنهي عن التجسس لصالحهم بعد التودد لهم، حيث يقول الباري عز وجل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) [سورة الممتحنة ١]، وقد تبين أن أكثر العلماء على أن هذه الآية وما بعدها نزلت في (حاطب بن أبي بلتعة)^(٢) رضي الله عنه، ويؤكد هذا ما جاء عن الإمام الواحدي: "قال جماعة من المفسرين: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة"^(٣)، فقد صار - رضي الله عنه - سبباً في نزول تشريع رباني باقٍ إلى قيام الساعة وهو تحريم موالاة الكافرين، وكأن الخطاب إشارة إلى من هو

(١) . الفهم الوسطي للجهاد في الفكر الإسلامي: ص ٦٣٤ - ٦٣٥.

(٢) . حاطب بن أبي بلتعة: يفتح الموحدة وسكون اللام بعدها مثناة ثم مهملة مفتوحات، بن عمرو بن عمير بن سلمة بن صعب بن سهل اللخمي: (٩٥ ق هـ . ٣٠ هـ): صحابي شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوقائع كلها، كان من الرماة، واسع التجارة، وهو حامل كتاب رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى المقوقس بالإسكندرية، وكانت وفاته بالمدينة، ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل . بيروت، ١٤١٢ هـ: ٤/٢.

(٣) . أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت، ١٩٦٥ م: ٢٨١، ٢٨٣، وينظر: تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول: تصنيف الشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة .

بيروت، ١٩٩٨ م: ٣٥١ - ٣٥٢.

بعد حاطب رضي الله عنه، حيث أن الله تعالى ناداه بنداء المؤمنين، وقد مر الإمام البقاعي - عليه رحمة الله - بهذه المسألة مروراً طيباً، ذكر فيه أن الله تعالى "حذر المؤمنين من مدانة مثل ذلك مع كونهم مؤمنين، كما وقع لحاطب بن أبي بلتعة رضي الله تعالى عنه، مما قص في سورة الممتحنة، إشارة إلى أنه لا تجتمع موالاة المؤمنين وموالاة الكافرين في قلب، إلا أوشكت إحداهما أن تغلب على الأخرى فتتزعجها^(١).

وجمعاً بين الاختصار والشمول، وتحاشياً للسرد والتطويل، فسأذكر ما ورد في صحيح مسلم بخصوص قصة حاطب رضي الله عنه، حيث جاء فيه: [حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وعمرو الناقد وزهير بن حرب وإسحاق بن إبراهيم وابن أبي عمر - واللفظ لعمرو - قال إسحاق: أخبرنا، وقال الآخرون: حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو عن الحسن بن محمد، أخبرني عبيد الله بن أبي رافع - وهو كاتب علي - سمعت علياً رضي الله عنه وهو يقول: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد، فقال انتوا (روضة خاخ)^(٢) فإن بها (ظعينة)^(٣) معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا (تعادي بنا خيلنا)^(٤)، فإذا نحن بالمرأة فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من (عقاصها)^(٥)، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة، يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا حاطب ما هذا؟))، قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأة (ملصقاً)^(٦) في قريش، وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفوفاً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق، فقال عمر دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: ((إنه قد شهد بدراً، وما

(١) . نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية . بيروت، ط ٢، ٢٠٠٢ م: ٩٣/٢.

(٢) . روضة خاخ: موضع بين مكة والمدينة، أقرب إلى المدينة، ينظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ)، أطروحة دكتوراه، تحقيق: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، إشراف: أ.د. سعدي الهاشمي، ١٤٢٤ هـ: ٨١٦/٢.

(٣) . الظعينة: المرأة في اليهودج، ينظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي: ٨١٧/٢.

(٤) . تعادي بنا خيلنا: تباعد وتجاري، ينظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي: ٨١٧/٢.

(٥) . عقاصها: العقاص هو الشعر المظفور، مفردة عقيصه، ينظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي: ٨١٧/٢.

(٦) . ملصقاً: مضافاً إليهم وليس منهم، وقيل: معناه حليفاً ولم يكن من نفس قريش وأقربائهم، ينظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي: ٨١٧/٢.

يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم))، فأُنزل الله عز و جل □ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ □ [سورة الممتحنة ١] (١).

إن المعنى العام للآية يصب في كيفية تعامل المسلم مع ما حوله من معطيات، وخاصة منها مسألة الولاء والبراء، وهذا أساس يترتب عليه بناء كل مجتمع أو أمة، ولك أن تتخيل كيف يكون حال أمة يحيط بها أعداؤها من كل صوب، ويتربصون بها الدوائر، ومع هذا يعيش في كنفها ويأكل من خيراتها من يوالون أعداءها، فمن كان عنده قلب ويقف ليتأمل في الآيات الناهية عن التجسس يجد وقعها الخطير داعياً إلى مراجعة النفس، وخاصة في الموالاة: هل هي لهذا الدين وأهله؟ أم يشوبها ويختلط معها ما يتناقض مع وجودها؟

المَطْلَبُ الثَّالِثُ: مَاذَا يَتَرْتَّبُ عَلَى الْمُسْلِمِ الَّذِي يَتَجَسَّسُ لِصَالِحِ الْعَدُوِّ؟

ذكرت بعض كتب التفسير والمؤلفات التي تحدثت عن موضوع التجسس أن هنالك أحكام تتعلق بمن يتجسس لصالح أعداء المسلمين، وخشية للإطالة أثرت أن أتعرض لموضوع الجاسوس المسلم فقط، لما لهذا الأمر من شديد الخطورة على المجتمع الإسلامي، وجدير بالذكر أن كثيراً من الباحثين ربطوا موضوع الجاسوس بقصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكما هو معلوم أنه قد برّاه الله تعالى، ذلك أنه أغشي عليه عندما سمع قوله تعالى فيه: □ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ □ [سورة الممتحنة ١]، وهو ثابت في كثير من كتب التفسير وكتب الحديث، وقرر ذلك النبي عليه الصلاة والسلام عندما قال لأصحابه: (لقد صدقكم) (٢)، وفي رواية أخرى (صدق فلا تقولوا له إلا خيراً) (٣)، ومما هو معلوم أيضاً أن لحاطب رضي الله عنه خصوصية فيما فعله لا تتسحب على غيره، وذلك لشهادة النبي صلى الله عليه وسلم له في موضعين عدا ما تمّ ذكره آنفاً، وهما قوله لعمر رضي الله عنه: (إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) (٤)، وقوله عليه الصلاة والسلام للعبد الذي جاء إليه يشكو حاطباً فقال: يا رسول الله ليدخلن حاطب النار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدرًا والحديبية) (٥)، لأن قلب حاطب كان سليماً بالتوحيد كما قرر ذلك العلماء.

(١) . صحيح مسلم: ١٦٧/٧ برقم ٦٥٥٧ باب (فضائل أهل بدر)، سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م: ٤٩٧/٥ - ٤٩٨ برقم ٣٥٩٠.

(٢) . صحيح البخاري: ١٠٩٥/٣ برقم ٢٨٤٥، باب الجاسوس.

(٣) . صحيح البخاري: ٥ / ٢٣٠٩ برقم ٥٩٠٤، كتاب الاستئذان.

(٤) . صحيح البخاري: الحديث نفسه.

(٥) . صحيح مسلم: ١٩٤٢/٤ برقم ٢٤٩٥، باب فضائل أهل بدر رضي الله عنهم.

وقد استخلص علماؤنا أحكاماً بحق الجاسوس، سأتناول منها الأحكام التي تخص الجاسوس المسلم كما ذكرت للاختصار، فللعلماء في هذه المسألة ثلاثة آراء^(١):

- الرأي الأول: (أن المسلم إذا صار عيناً للكفار يقتل): وهو مذهب الإمام مالك وأحد الوجهين من مذهب أحمد بن حنبل^(٢)، وقد استدلل أصحاب هذا المذهب بالحديث المروي في صحيح البخاري، الذي جاءت فيه قصة حاطب، حيث قالوا: إن العلة في عدم قتل حاطب رضي الله عنه، كونه من أهل بدر لا لكونه مسلماً فقط، وهذه العلة لا توجد في غير حاطب، فلو كان الإسلام مانعاً من قتله، لم يعلل بأخص منه، لأن الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير، وعلى ذلك يكون عدم قتل الجاسوس المسلم خاصاً بأهل بدر فقط، وأما ما عداهم من المسلمين فيقتل من تجسس منهم لصالح العدو، لإضراره بالمسلمين وسعيه بالإفساد في الأرض، وهو بعمله هذا أضر من المحارب^(٣).
- الرأي الثاني: (أن المسلم إذا صار عيناً للكفار يقتل، في حالة تكرار تجسسه واتخاذة عادة): قال به عبد الملك بن الماجشون من المالكية^(٤)، ودليلهم بهذا أيضاً من الحديث السابق، على أن حاطباً أخذ في أول فعله ولم يتكرر منه هذا الفعل، فلم يقتل لهذا السبب، لذا فلا يكون المرء جاسوساً حقيقة إلا إذا تكرر منه ذلك الفعل واتخذة عادة ومهنة، فإن عرف بذلك تكون عقوبته القتل، وإن لم يعرف عزراً، وضرب ونكل، وذلك فيما لو كانت فلتة عارضة دونما قصد كما حصل من حاطب رضي الله عنه^(٥).
- الرأي الثالث: (إن المسلم إذا صار عيناً للكفار لا يقتل وإنما يعززه الإمام، بما يراه من ضرب أو حبس)، وهو مذهب الشافعية والحنفية وظاهر مذهب أحمد بن حنبل وبعض المالكية والأوزاعي وابن قيم

(١) . أحكام القرآن لابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بـ (ابن العربي) (ت ٥٤٣هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت، ٢٠٠٢م، ط: ٣، ٤ / ٢٢٥-٢٢٧، ينظر: تفسير القرطبي ١٨/ ٥٤٠٢، عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٢٢/ ٤١ باب الجاسوس، زاد المعاد في هدي خير العباد: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٨٦م: ٣/ ٣٧١ كتاب الجهاد والمغازي، باب جواز قتل الجاسوس.

(٢) . أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ٢٢٥-٢٢٧، مواهب الجليل من أدلة خليل: أحمد بن أحمد المختار الجكني الشنقيطي، عني بمراجعته: عبد الله إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، الطبعة: الأولى، (١٤٠٣ - ١٤٠٧ هـ)، ٢/ ٣١٠، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت ٧٩٩هـ)، مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م: ٢/ ٢٩٧.

(٣) . التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: محمد راكان الدغمي، جمعية عمال المطابع التعاونية . عمان، ١٩٨٤م: ١٥٨ - ١٦٠.

(٤) (ينظر: تفسير أحكام القرآن لابن العربي: ١٨/ ٥٣، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام: ٢/ ١٩٤).

(٥) . التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٥٨ - ١٦١.

الجوزية^(١)، وهم أيضاً استدلوا بالقصة نفسها في الحديث، ووجه استدلالهم لو أن عمل حاطب يستوجب القتل كفراً أو حداً لقتله رسول الله عليه الصلاة والسلام وما تركه، ولما منعه كونه من أهل بدر، ولذا يتبين من القصة أن المسلم إذا تجسس للكفار على المسلمين ثم أقر بذلك فإنه لا يقتل، ولكن أمره إلى الإمام وله أن يعاقبه عقوبة موجعة تعزيراً، وكذلك استدل أصحاب هذا الرأي بحديث فرات بن حيان "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ بِقَتْلِهِ وَكَانَ عَيْنًا لِأَبِي سُفْيَانَ وَحَلِيفًا، فَمَرَّ بِحَلَقَةِ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: إِنِّي مُسْلِمٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، فَقَالَ: " إِنْ مِنْكُمْ رَجُلًا نَكَلَهُمْ إِلَى إِيْمَانِهِمْ؛ مِنْهُمْ فَرَأْتُ بَنَ حَيَّانَ"^(٢)، ووجه الاستدلال به عندهم على عدم جواز قتل المسلم إذا تجسس لصالح العدو، إذ رفع رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه القتل بعدما أعلن إسلامه، فقد تركه رسول الله بعد أن سمع عنه أنه مسلم وسماه مؤمناً، وقد سماه الله مؤمناً كما سمى حاطباً مؤمناً أيضاً، حيث قال تعالى في حق فرات: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) [سورة الأنفال ٢٧]، كما قال في حق حاطب يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) [سورة الممتحنة ١]، ولهذا قالوا: للإمام أن يقرر العقوبة بما يراه مناسباً ورادعاً له ولغيره، ولا تصل هذه العقوبة إلى القتل^(٣)، كما استدل أصحاب هذا الرأي بقوله عليه الصلاة والسلام: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة)^(٤)، واستدل أصحاب هذا الرأي بهذا الحديث على عدم جواز قتل الجاسوس المسلم: بأن الحديث يدل على أنه لا يحل دم من ثبتت له حرمة الإسلام، إلا أن يقتل، أو يزني بعد إحصان، أو

(١) الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبة الأنصاري (ت ١٨٢ هـ، المكتبة الأزهرية للتراث، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد: ٢٠٧، الأم، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ)، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م، ٢٦٤/٤.

(٢) . مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٩٩/٣١ برقم ١٨٩٦٥، وهو صحيح على شرط الشيخين، ينظر: المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١ - ٤٠٥ هـ)، حققه وخرجه وعلق عليه: عادل مرشد، د أحمد برهوم، د محمد كامل قره بلي، د سعيد اللحام، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م، ٤٣٧/٣ برقم ٢٥٧٤ كتاب الجهاد.

(٣) . ينظر: ينظر: تفسير القرطبي: ٥٣/١٨، التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٥٨ - ١٦٢.

(٤) . صحيح البخاري: ٢٦٢/١٧ برقم ٦٨٧٨ كتاب الجمعة.

يكفر كفراً بعد إيمان، ثم يثبت على الكفر، فالجاسوس المسلم إن تجسس للعدو طمعاً أو لأي سبب عارض فلا يخرجته تجسسه عن الإيمان، إذا كان اعتقاده سليماً كما كان حاطب رضي الله عنه^(١). إن الجاسوسية أشد الأمور خطورة على المسلمين، والقصة التي تم إيرادها فيها إشارة إلى عدم غياب القائد أو الإمام في هذا المقام، وفعل النبي عليه الصلاة والسلام دليل على حضور القائد وتقديره للحالة في وقتها، وعلى هذا فالأمر موكول للإمام، إن تبين له أن مصلحة المسلمين تقتضي العقوبة عاقبه على أن تكون زاجرة له عبرة لغيره، وإن اقتضت المصلحة قتله، والله تعالى أعلم.

المبحث الثالث

المطلب الأول: التَّجَسُّسُ: مَا لَهُ وَمَا عَلَيْهِ (إيجابيات وسلبيات):

أشرت في المبحث الثاني من هذا البحث أن من التجسس ما هو مشروع ومنه غير ذلك، بحسب ما تم عرضه من أقوال للعلماء في ذلك، وتبين لي خلال العرض أن الأصل في مشروعية التجسس وعدمها هو ما تقتضيه مصلحة المسلمين، والدولة الاستخبارية تعرف ما تريد بناءً على المعلومات التي تحصل عليها، وتعتبر الدولة الاستخبارية هي (دولة الفعل)، أما الدولة التي لا تتخذ الإجراءات الاستخبارية فتعتبر (دولة رد الفعل)^(٢)، أي التي تبادر في اتخاذ التدابير الصحيحة لتلافي الإضرار بمصالحها بكل أنواعه، تكون ناجحة في المحافظة على وجودها وشعبها، أما التي تتأخر في اتخاذ التدابير الاستخبارية الصحيحة فتلك سيكون وجودها وأمنها مهدد، وبالتالي ستكون قاصرة عن تحقيق الأمن لمواطنيها، وفي هذا المقام سأبين بعضاً من الأمور التي تجعل من التجسس أو العمل الاستخباري عنصراً مهماً في المجتمعات، وسأجعل هذا المفصل من البحث على فرعين: الفرع الأول: سيكون متعلقاً بالجوانب الإيجابية للتجسس، أما الفرع الثاني: فسأستعرض فيه الجوانب السلبية:

الفرع الأول: إيجابيات التجسس:

فمن الأمور التي يُعد فيها التجسس ذو فائدة أو أن يكون له مردود إيجابي ما يأتي:

١. يعد التجسس أو العمل الاستخباري من أسباب القوة وإثارة الرهبة في قلوب الأعداء التي أمر الباري عز وجل الأخذ بها^(٣)، لقوله تعالى وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ

(١) الأم ، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: ٢٦٤/٤، شرح السير الكبير، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة

السرخسي (ت ٤٨٣هـ)، الشركة الشرقية للإعلانات، ١٩٧١م، ٢٠٤٠ باب العين يصيبه المسلمون برقم ١٩٠.

(٢) . ينظر: العملاء كما يصورهم القرآن الكريم: محمد نور الدين شحادة، المكتبة الوطنية . عمان، ٢٠٠٥م: ٢٥.

(٣). ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ١١٦

اللَّهُ وَعَدُوكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) [سورة الأنفال ٦٠].

٢. يساعد التجسس أو العمل الاستخباري على توفير الإنذار المبكر، لقوله عز من قائل وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) [سورة التوبة ١٢٢]، فمن خلال التجسس يمكن معرفة نوايا الأعداء وتحركاتهم، وبعدها يتم اتخاذ الإجراءات التي تقوّت على العدو فرصة تحقيق الهدف^(١).

٣. يعدّ التجسس أو العمل الاستخباري مظهر من مظاهر الحيطة والحذر التي نبه عليها الخالق ﷺ بقوله يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) [سورة النساء ٧١]، لأن العمل الاستخباري يحول دون مفاجأة العدو^(٢)، وقال تعالى في موضع آخر يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) [سورة النساء ١٠٢].

٤. التجسس مطلب أساسي للرباط، لقول الله تبارك وتعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) [سورة آل عمران ٢٠٠]، والرباط والمرابطة حراسة ويقظة وتأهب، وغالباً ما يكون ذلك عندما يتم معرفة نوايا العدو^(٣).

٥. يعدّ التجسس أو العمل الاستخباري من وسائل الوقاية من الهلاك والضرر، حيث يقول تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) [سورة النساء ٨٣]، فالعمل الاستخباري يمنع من تسرب الدعايات المعادية التي تعمل على تدمير النفسانيات لدى أفراد المسلمين^(٤).

٦. التجسس سبب من أسباب الظفر عند الله تعالى، قال عز وجل مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) [سورة التوبة ١٢٠]،

(١) . ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ص ١١٦، الأمن القومي العربي (عقيدة الجهاد والإستراتيجية العسكرية في الإسلام): اللواء أركان حرب محمد يوسف عمرو العملة، مطبوعات الراية، ٢٠٠٩م، ط ١: ١٨١.

(٢) . ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ١١٦.

(٣) ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ١١٧.

(٤) . ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ١١٧.

إذ يعد العمل الاستخباري والتجسس على العدو بأي وسيلة في سبيل نصرته الإسلام من الأعمال التي يثيب الله تعالى فاعلها^(١).

الفرع الثاني: سلبيات التجسس:

مع أن للتجسس أحوالاً تكون له فيها نتائج إيجابية، إلا أن هنالك أحوالاً للتجسس فيها نتائج سلبية، سأحاول إجمالها بما يأتي:

١. يعدّ التجسس على البيوت والتطلع على عورات أهله ظاهرة سلبية لها نتائج غير محمودّة، يقول الباري عز وجل: **وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٨٠) [سورة النحل ٨٠]**، وضماناً لعدم حصول مشاكل اجتماعية، فقد جعل الله تعالى لهذه البيوت حرمة ومنعة من أن تكون عرضة للتجسس^(٢)، ولا يؤمن على العلاقات الأسرية من التقاطع إذا كانت مبنية على التجسس، وإذا لم يكن هنالك رعاية للحرمة^(٣)، حيث قال عز من قائل: **[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُم ارجِعُوا فَارجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) سورة النور ٢٧ - ٢٨]**، قال سيد قطب: "ومن ثم يضمن الإسلام للبيت حرمة، ليضمن له أمنه وسلامه واطمئنانه، فلا يدخله داخل إلا بعد الاستئذان، ولا يقتحمه أحد بغير حق باسم السلطان، ولا يتطلع أحد على من فيه لسبب من الأسباب"^(٤).

٢. للتجسس مضار مادية ومعنوية، حيث أن التجسس على الناس قد يفسد عليهم مصالحهم، لتولد حالة الشك بالمتجسس عليه، سواء أكان التجسس من قبل أفراد أم أجهزة الدولة، وقد يكون الضرر المعنوي أشد من المادي^(٥)، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: **(إنك إن اتبعت عورات الناس أفستهم، أو كدت تفسداهم)^(٦)**، فلا يجوز التعدي على حريات الناس الخاصة باستراق السمع، سواء سبق ذلك ظن أم لم

(١) . ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ١٢٧

(٢) . ينظر: دستور الأسرة في ظلال القرآن: أحمد فائز، مؤسسة الرسالة . بيروت، ١٩٩٢م، ط٦: ٢٥٥.

(٣) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٤٩.

(٤) . في ظلال القرآن: ٢١٨٧/٤.

(٥) . ينظر: حماية الحياة الخاصة: ٦٣.

(٦) . سنن أبي داود: ٤/٢٣ برقم ٤٨٩٠ باب (في النهي عن التجسس)، صحيح ابن حبان: ٧٢/١٣ برقم ٥٧٦٠ باب (الغيبة).

يسبقه، قال تعالى وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) [سورة الإسراء: ٣٦]، قال الإمام الغزالي: "فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره لسمع صوت الأوتار ولا أن يستنشق ليدرك رائحة الخمر ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره"^(١).

٣. التجسس على الأهل يعد أيضاً من الظواهر السلبية، ومن المعلوم أن العلاقة بين الزوجين علاقة مقدسة، وأن كل ما يجري بينهما يعد من باب العهد، والوفاء بالعهد وحفظه واجب في شرعنا الحنيف، إذ يقول الباري عز وجل: وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا [سورة الإسراء: ٣٤]، قال سيد قطب: "ولا يتجسس أحد على أهله في غفلة منهم أو غيبة، فيروغ أمنهم ويخل بالسكن الذي يريده الإسلام للبيوت"^(٢).

٤. ومن أخطر أنواع التجسس هو التجسس لصالح الأعداء، إذ فيه من المضار والمخاطر التي تهدد حياة الناس وأمنهم، وهذه المهنة لها ارتباط وثيق بالحرب منذ أن عرفت البشرية الحروب، ولها مقدمات أو مسوغات تجعل الجاسوس يقدم على فعل التجسس، منها الولاء للدولة المعادية بسبب مغريات أو وعود يتحصلها من العدو، قال تعالى: وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا [سورة المائدة: ٨٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُم وَيَخْلَفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤)﴾ [سورة المجادلة: ١٤]، فالفعل الذي يرتكبه الجاسوس لا يعد جريمة لكونه يلحق ضرراً فحسب؛ وإنما لأنه يعتبر خرقاً جسيماً للأمانة تجاه الوطن^(٣).

المطلب الثاني: الأسباب والدوافع الداعية للتجسس.

إن الجاسوسية قديمة قدم الإنسان بصرف النظر عن كونها محترمة أم لا، فعندما ينخرط أفراد من الناس في مزاوله التجسس أو العمل الاستخباري، فلا بد أن تكون هنالك دوافع وأسباب تأخذهم بهذا الاتجاه، وقد توصلت إلى بعض هذه الأسباب والدوافع فأجملتها فيما يأتي:

١. الرغبة المتأصلة عند الإنسان في الحصول على المعلومات أو معرفة الأخبار والكشف عنها، بغض النظر عن سلامة هذه الرغبة من عدمها، أو كونها على أساس علمي منتظم أو ليس كذلك، ومعلوم أن الأصل في الطبيعة الإنسانية هو محاولة الاحتفاظ بالأسرار الخاصة، مما يدفع بالنفوس الضعيفة

(١) . إحياء علوم الدين: ٣٢٩/٢.

(٢) . في ظلال القرآن: ٢١٨٧/٤.

(٣) . ينظر: الباحثون عن الأسرار: ١٢ - ١٣.

الأخرى إلى التطفّل أحياناً لمحاولة معرفة هذه الأسرار، نقل صلاح نصر في كتابه أن الكابتن (فرانزفون رنبلين) - ووصفه بأنه من أنجح جواسيس الألمان في الحرب العالمية الأولى - قائلاً: "إن لكل دولة الحق في أسرارها الخاصة، وهي في نفس الوقت ملتزمة بالمحافظة عليها، ولكن نفس هذا المعنى يعطي كل دولة الحق في أن تكتشف أسرار الدول الأخرى^(١)، ولا يخفى أن ديننا الحنيف أشار إلى هذه الحالة ولكن بصيغة العلاج، ذلك أن الشارع عليم بالنفس البشرية وما تتطلع إليه من رغبة في معرفة الأخبار.

٢. الصراع بين الدول من أجل الهيمنة أو البقاء، لذا فإن ارتباط التجسس أو العمل الاستخباري بالحروب ارتباط وثيق، حيث كانت الدول تستعين بالعيون والجواسيس منذ القدم، وكان لهؤلاء الجواسيس - في كثير من المعارك - السبب المباشر في تغيير مجرى أحداثها، إذ يعد الحصول على المعلومات عن مخططات العدو وأحواله ونواياه من الوسائل المتممة والمساعدة على دحره^(٢)، فالحصول على المعلومات عن نوايا العدو مبكراً يوفر الإنذار المبكر، ويعطي الفرصة للاستعداد والمباغنة وتقويت الفرصة على العدو، وقد قيل: "إذكاء العيون أنفى للظنون"^(٣).

٣. دوافع عاطفية: فعادة ما تجند بعض الدول نساءً شابات في بعض دوائرها الرسمية، بصفة سكرتيرات أو كاتبات، وعادة ما يتم اختيار ذوات الجمال، وهؤلاء يعملن على اصطياذ الاشخاص المغتربين وإغرائهم بوعود من خلال علاقات مشبوهة، مما يدفع الشخص المستهدف إلى إفشاء الاسرار الخاصة ببلده، ثم يتدنى به الحال إلى أن يصبح جاسوساً على بلده^(٤)، وقد يكون الأمر بالعكس تماماً، حيث ينقل أحد الكاتبين أنه: "في عام ١٩٣٩م كانت سكرتيرة شابة جذابة تعمل في وزارة الخارجية الألمانية، وكانت تتباهى بجمالها، وكانت تعطف على النازيين، مما جعلها تسرق البرقيات الدبلوماسية لحبيبتها النازي، لأنها كانت تعتقد أنه من أتباع (هتلر) المخلصين، ولكنه لم يكن في الحقيقة سوى شيوعي ألماني يعمل في خدمة المخابرات السوفيتية"^(٥).

٤. الموالاة للأعداء: تجتمع عدة عوامل تحت هذا الدافع منها: التأثر بهم وبما عندهم، أو حبهم، أو بغضه لبلده ومواطنيه، قال الإمام ابن عاشور في تفسيره: "موالاة طائفة من الكفار لأجل الإضرار بطائفة معينة من المسلمين مثل الانتصار بالكفار على جماعة من المسلمين"^(٦)، وغيرها من العوامل الأخرى التي تدعو صاحبها إلى امتهان التجسس، وقد كشف لنا القرآن الكريم هذا الخلق الذميم، ودعا المسلمين إلى الاحتراز

(١). الحرب الخفية (فلسفة الجاسوسية ومقاومتها): ١١.

(٢). ينظر: الباحثون عن الأسرار: ١١.

(٣). ينظر: التجسس واحكامه في الشريعة الإسلامية: ٣٠.

(٤). ينظر: الحرب الخفية (فلسفة الجاسوسية ومقاومتها): ٤٢.

(٥). الحرب الخفية (فلسفة الجاسوسية ومقاومتها): ٤٣.

(٦). التحرير والتتوير: ٧٣/٣.

منه، حفاظاً على كيان دولة الإسلام، فقال تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤) [سورة النساء ١٤٤]، وقال عز وجل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) [سورة المائدة ٥١]، وبهذا يقرر القرآن الكريم ان هناك من سيتأثر بما عند الكفار، وقد يدفع ذلك التأثير بعضاً منهم إلى الإعجاب بهم وموالاتهم المفضية إلى التجسس لهم^(١).

٥. الهزيمة النفسية: وهي من أسباب انحراف في سلوك بعض الناس، نتيجة لما يستعظمونه من تقدم تكنولوجيا وإعلامي وصناعي وأسلحة مدمرة، وما ذلك إلا بسبب ما يصوره لهم الشيطان، فيتولد عند هؤلاء انهزام داخلي وشعور باليأس من النجاة والنصر^(٢)، وقد أشار القرآن إلى مثل هذه الظاهرة وشخصها، إذ يقول ربنا عز وجل إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) [سورة آل عمران ١٥٥]، ووصفهم القرآن بالنفاق وأن لهم قلوب مريضة، قال تعالى (وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) [سورة الأحزاب ١٢]).

٦. دوافع مادية: إن الإنسان مجبول على حب المال والزيادة فيه، كما زُيِّن له حب الأولاد والشهوات، قال ربنا عز وجل زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاَبِ (١٤) [سورة آل عمران ١٤]، ويقول تعالى وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) [سورة العاديات ٨]، وذلك الحب المادي إذا لم يكن منضبطاً بالضوابط الشرعية الصحيحة، قد يؤدي إلى الانحراف السلوكي، مما يجر بالضرر على الفرد نفسه أو الجماعة التي يعيش ضمنها، ويكون ذلك الفرد الضعيف فريسة للمغريات، ولا يخفى أن شبكات التجسس تبحث عن مثل هذه النماذج لاستغلالها، وقد قيل أن المخابرات الأمريكية ترى أن لكل إنسان ثمن، وهي وفق هذا التصور تبحث عن الأشخاص الذين تجندهم للتجسس لصالحها، وتعلن مراراً عن جوائز مالية مقابل الإدلاء بالمعلومات^(٣).

(١). ينظر: العملاء كما يصورهم القرآن الكريم: ٥٣ - ٥٥.

(٢). ينظر: العملاء كما يصورهم القرآن الكريم: ٦٠.

(٣). ينظر: العملاء كما يصورهم القرآن الكريم: ٧٧.

٧. حب المغامرة والتظاهر بالشجاعة والجرأة، أو الرغبة في الإضرار بالناس، وحب الاعتداء، وهذه من الظواهر السلبية التي يستغل أصحابها الظروف أو البيئة التي يعيشون فيها، فهؤلاء انتهازيون يتحينون الفرص بالناس ويتمنون لهم سوء والهلاك، وخطرهم كبير في الإضرار وهدم المجتمعات^(١)، يقول الباري عز وجل إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) [سورة النور ١٩].

٨. دوافع قهرية: تعمل بعض الأجهزة الاستخبارية أحياناً بطرق خبيثة على توريط بعض الناس - الذين تستهدفهم - بأعمال قد تكون مخلة بالشرف والسمعة والأخلاق، فيجد ذلك المرشح نفسه أمام تهديد لا يستطيع مقاومته، مما يضطره إلى التعامل مع هذه الأجهزة تحت عوامل القهر والابتزاز^(٢).

٩. دوافع دينية ووطنية: إن الإسلام يحث على الدفاع عن الأوطان وعن أمن المواطنين فيها، كما يحث على الدفاع عن الأعراض والأموال والأنفس، ومن هذا المبدأ يكون لدى المسلم إيمان بضرورة حفظ الدين والعقيدة، فهو يتحمل أصعب الظروف والمشاق في سبيل الحصول على معلومات عن أعداء الإسلام ونواياهم ومخططاتهم الرامية إلى تحطيمه^(٣)، وبذلك يكون قد نال مراتب الشرف والرفعة، "فالجاسوس الذي يتجسس لوطنه على العدو؛ إن كان مسلماً ولم يخالف بعمله توجيهات الشريعة الإسلامية فهو مجاهد في سبيل الله تعالى، إن كانت نيته خالصة لله تعالى، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات؛ وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(٤)، و" قد ينظر بعض الناس إلى الجاسوس نظراتهم إلى مخلوق وضعي؛ يستخدم وسائل قوامها الجبن والنذالة، ولكن هذا القول لا يصدق في كل الأحوال، فإن الجاسوس الذي يعمل لنصرة قضية بلاده يؤدي خدمة من أنبل الخدمات"^(٥).

المطلب الثالث: طرق الوقاية وعلاج التجسس غير المشروع.

أنتقل في هذا المقام إلى الخطوات الأخيرة في هذه الدراسة، التي سأحاول فيها بيان بعض الطرق التي يمكن خلالها معالجة التجسس غير المشروع، أو الوقاية منه، وستكون وفق الآتي:

(١) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٨٧.

(٢) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٨٨.

(٣) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٨٨.

(٤) . صحيح البخاري: باب (كيف كان بدء الوحي)، ٣/١ رقم ١. التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٨٩ - ٩٠.

(٥) . الباحثون عن الأسرار: ٤٣.

١. استشعار مراقبة الله تعالى في كل حال: والآيات الدالة على مراقبة الله تعالى كثيرة، منها قوله عز وجل
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤)
[سورة التغابن ٤]، وقوله تبارك وتعالى [سورة الملك]، فعندما يشعر الإنسان بأن الله الذي خلقه يعلم ما
يسر وما يعلن، سيكون ذلك داعياً إلى اجتناب المحظورات، ومنها التجسس بكل صوره، "والزاجر الأكبر هو
مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه" (١).

٢. غُضُّ البصر وحفظ الفرج: وهو أيضاً من الآداب التي تكون أماناً للتجسس والاطلاع على عورات الناس
(٢)، فكما يحب المرء ألا يطلع على عوراته أحد، فكذلك الناس، قال الباري عز وجل قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا
مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ
عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
أَخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ
التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)
[سورة النور ٣٠ - ٣١].

٣. الالتزام بآداب التعامل مع الناس عند إرادة الدخول على البيوت، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
(٢٧) [سورة النور ٢٧]، وهذا الأمر الرباني يحول دون سقوط الآداب بين الناس، ويمنع من إمكانية
التجسس، "لئلا يجعلوا القرابة والصداقة والمخالطة مبيحة لإسقاط الآداب، فإن واجب المرء أن يلازم الآداب
مع القريب والبعيد" (٣)، ومن هنا فإن للبيوت حرمة لا يجوز المساس بها، فلا يفاجأ أهلها بدخول الغرباء إلا
بعد السماح لهم، خيفة أن تطلع الأعين على خفايا البيوت أو على عورات أهلها وهم غافلون (٤).

(١) . أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: ١٧١/٢.

(٢) . ينظر: تفسير البحر المديد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، دار
الكتب العلمية . بيروت، ٢٠٠٢م، ط ٢: ٨٠/٥.

(٣) . تفسير القرطبي: ٢١٣/١٢، تفسير التحرير والتنوير: ٣٠٣/١٨، حماية الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية: ٢١.

(٤) . ينظر: دستور الأسرة في ظلال القرآن: ٢٥٦.

٤. الولاء لله ورسوله والمؤمنين، والبراء من أعدائه: قال تعالى إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) [سورة المائدة ٥٥]، فإذا ما تمسك المسلم بهذا المفصل المهم من مفاصل العقيدة، فسيكون أحرص على أمن وطنه ومواطنيه، قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: "أي: ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين"^(١)، وقال سيد قطب: "وقيمة هذا المنهج، وقيمة هذه التوجيهات الأساسية فيه عظيمة، فإخلاص الولاء لله ورسوله ودينه وللجماعة المسلمة القائمة على هذا الأساس، ومعرفة طبيعة المعركة وطبيعة الأعداء فيها أمران مهمان، سواء في تحقيق شرائط الإيمان أو في التربية الشخصية للمسلم، أو في التنظيم الحركي للجماعة المسلمة"^(٢)، وبهذا لا تجوز موالاته الكافرين وإظهار عورة المسلمين لهم، ولا يمكن أن يجتمع في قلب امرئ مؤمن حب لله ورسوله مع حب العدو والولاء له^(٣).

٥. حفظ اللسان وأمانة الكلمة: فكلما كانت الأسرار مفضوحة كانت سهلة المنال من قبل الجواسيس، ولقد كانت أسرار المسلمين مصونة وبعيدة عن متناول الأعداء، والقرآن الكريم بين لنا أن كل لفظ من الإنسان مسجل عليه، فقد قال الباري عز وجل [سورة ق ١٨]، والمؤمن يجب أن يكون متكماً على الأسرار، والكلمة أمانة لها عظمها في الإسلام، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)^(٤)، ومن تعمد إفشاء الأسرار ونقل الأخبار فقد خان الأمانة التي أوصى الله تعالى بالمحافظة عليها وصونها^(٥)، قال عز من قائل يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) [سورة الأنفال ٢٧]، وعلى المسلم أن لا يخون المسلمين أو أولياء أمورهم خاصة فيما يتعلق بالأمور السياسية أو الحربية^(٦).

٦. اليقظة الدائمة واتخاذ كافة إجراءات الحيطة والحذر التي تمنع أو تحد من تجسس الأعداء، قال تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) [سورة النساء ٧١]، قال الراغب: "أي ما فيه الحذر من السلاح وغيره"^(٧)، فالإسلام ينبه المسلمين ويضع أمام أعينهم الخطر المحدق

(١) . تفسير ابن كثير: ١٣٧/٣.

(٢) . في ظلال القرآن: ٣٨٧/٢.

(٣) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٨٩.

(٤) . صحيح البخاري: ٢٣٧٦/٥ برقم ٦١١٠ باب (حفظ اللسان)، ينظر: صحيح مسلم: ٤٩/١ برقم ١٨٢ باب (الحث على إكرام الجار والضيف).

(٥) . ينظر: الأمن القومي العربي (عقيدة الجهاد والإستراتيجية العسكرية في الإسلام): ١٨٧ - ١٨٩.

(٦) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ١٨٨.

(٧) . المفردات في غريب القرآن: ١١١/١ كتاب (الخاء) .

المحقق بهم من قبل أعدائهم [النساء ١٠٢]، فهم ينتظرون الغفلة لينفذوا مخططاتهم^(١)، ولا يخفى ما يقوم به أعداء الإسلام من مشاريع تجسسية من خلال الأجهزة الدقيقة المتمثلة بأجهزة الاتصال وغيرها، فأولى بالمسلم وهو على ثغر من ثغور هذا الدين، أن يكون كيساً فطناً على معرفة تامة بالمخططات التي تهدد دينه ووطنه.

٧. تماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الإشاعات: فالمسلمون في نطاق كيانهم معنيون جميعاً بالحفاظ على أمنها وأمن وطمأنينة مواطنيها، وعليهم أن يكونوا وحدة واحدة أمام كل مخططات الأعداء، قال تعالى (زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) [سورة آل عمران ١٠٣] ، وفي صحيح مسلم أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)^(٢)، كما يتوجب على المسلمين أن يكونوا ذوو عزائم قوية؛ لا يتأثرون بالإشاعات التي يثيرها أعداء الإسلام لتثبيط الهمم، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقول ربنا جل شأنه: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) [سورة آل عمران ١٧٣]، فموقف المسلم من تلك الإشاعات هو الرفض القاطع^(٣)، لأن قبول سماع الإشاعات والأراجيف يكون داعياً إلى البحث والاستقصاء وذلك يؤدي إلى زعزعة العزائم وخلخلة الصّف، ثم إلى ظهور الأسرار وهذا مطلب الأعداء^(٤)؛ الأمر الذي لا يتوافق ما تقتضيه مصلحة المسلمين^(٥).

٨. الحفاظ على أمن المواطنين وأسرارهم^(٦): فإن من حق الشعوب على حكوماتها أن توفر لها كل أسباب الراحة، وأن تهئ مجتمعات تُصان فيه الحقوق وتُمارس فيه كل الحريات، دون تعدي من أحد على أحد، ولا توجد شريعة أو قانون اهتم بهذا الأمر مثلما تعاملت به الشريعة الإسلامية مع الشعوب، قال تعالى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) [آل عمران ١١٠]، فقد حمت الشريعة الإسلامية الحياة الخاصة للفرد والجماعة والهيئة، وحافظت على أسرار الإنسان وصانت عرضه

(١) . ينظر: الأمن القومي العربي (عقيدة الجهاد والإستراتيجية العسكرية في الإسلام): ١٨٠.

(٢) . صحيح مسلم: ٢٠/٨ برقم ٦٧٥١ باب (تراحم المؤمنين وتعاطفهم).

(٣) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٢٠٣.

(٤) . ينظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ٢٨٠.

(٥) . ينظر: التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: ٢٠٦.

(٦) . ينظر: سلوك المالك في تدبير الممالك: ٧٠.

وكرامته أيّاً كان؛ حياً أم ميتاً^(١)، ومن حق الشعوب داخل نطاق الدولة أن تحافظ على حدودها من دخول الدخلاء؛ الذين يتجسسون من أجل الإضرار بالمواطنين وبأمنهم ومصالحهم^(٢).

الْخَاتِمَةُ

بعد هذا العرض لموضوع التجسس من جوانبه اللغوية والشرعية والتاريخية والواقعية، تبين لنا أنّ التجسس ليس مفهوماً طارئاً على المجتمعات البشرية، بل هو ممارسة ضاربة في القدم، ارتبطت بالحروب والصراعات، وتطورت مع تطور أدوات الاتصال والمعلومات. وقد أظهر البحث أن الإسلام لم يُغفل هذا الجانب من السلوك الإنساني، بل وضع له ضوابط صارمة، فأباحه في حالات خاصة كالدفاع عن الدولة ورصد تحركات العدو، وحرّمه تحريماً قاطعاً عندما يتعلّق بانتهاك خصوصيات الأفراد أو خدمة جهات معادية، وقد اتضحت المفارقة الدقيقة بين "التجسس المشروع" الذي يُعدّ وسيلة من وسائل الحيلة والحذر، وبين "التجسس غير المشروع" الذي يؤدي إلى الفتنة وانتهاك الحرمات وإشاعة الفوضى، وهذا التمييز يُبرز سعة الشريعة الإسلامية وعدالتها في مراعاة مقاصدها الكلية، وفي مقدمتها حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال، كما كشف البحث عن الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية للتجسس، وأثره في بناء المجتمعات أو هدمها، وبيّن أن النهي النبوي عن التجسس لا يقتصر على بعد تعبدي، بل يشمل أبعاداً تنظيمية وحضارية تهدف إلى صون كرامة الإنسان المسلم، وترسيخ مبدأ الثقة والأمان بين أفراد المجتمع.

(١) . ينظر: حماية الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية: ٩.

(٢) . ينظر: القانون الدولي الإنساني في الإسلام: ٨٥، الاستخبارات العسكرية في الإسلام: ٢٦٢.

التوصيات:

١. ضرورة توعية المسلمين، أفرادًا ومؤسسات، بالفرق بين التجسس المشروع وغير المشروع، وبيان الأحكام الشرعية في هذا الباب، تجنبًا للوقوع في المخالفات الشرعية.
 ٢. تعزيز ثقافة "الستر وحسن الظن" في المجتمع الإسلامي، خاصة في زمن تنتشر فيه وسائل التجسس الحديثة، بما يضمن حماية الأفراد من التطفل والتشهير.
 ٣. العمل على إدراج موضوع "أحكام التجسس" ضمن المناهج الشرعية والأمنية، وذلك لتكوين وعي متوازن يجمع بين متطلبات الأمن القومي وأحكام الشريعة.
 ٤. تشجيع البحوث المعاصرة في مجال الأخلاق الرقمية والتجسس الإلكتروني، نظرًا لما يشهده هذا المجال من تطورات سريعة قد تُستخدم في الإضرار بالأفراد والمجتمعات.
 ٥. دعوة المؤسسات الأمنية في الدول الإسلامية إلى الالتزام بالضوابط الشرعية في أعمال المراقبة والتحقيق، وضمان ألا يتم انتهاك الحريات الشخصية إلا وفق الضرورات المعتبرة شرعًا.
 ٦. التحذير من مخاطر التجسس لصالح الأعداء، وبيان أن ذلك يُعدّ خيانة عظيمة تهدد أمن الأمة واستقرارها، ويستوجب أشد العقوبات بحسب المصلحة الشرعية.
 ٧. تفعيل الجانب الوقائي داخل المجتمعات من خلال تقوية الانتماء الديني والوطني، والحد من الدوافع النفسية والمادية التي قد تدفع الأفراد للتجسس على أوطانهم أو مجتمعاتهم.
- وصلّى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

المصادر

- القرآن الكريم، أوثق المصادر وأصدقها.
١. إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياني (ت ١١١٧ هـ)، تحقيق: أنس مهرة، دار الكتب العلمية . بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م .
 ٢. أحكام القرآن لابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بـ (ابن العربي) (ت ٥٤٣ هـ) ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ط ٣، ٢٠٠٢ م .
 ٣. إحياء علوم الدين: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٩١١ هـ)، دار المعرفة . بيروت .
 ٤. أخبار القضاة: أبو بكر محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي البغدادي، الملقب بـ (وكيع) (ت ٣٠٦ هـ)، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغي، المكتبة التجارية الكبرى . مصر، ط ١، ١٩٤٧ م .
 ٥. أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ)، دار الكتب العلمية . بيروت ، ١٩٦٥ م .
 ٦. أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت ١٣٩٣ هـ)، دار الفكر . بيروت، ١٩٩٥ م .
 ٧. الأحكام السلطانية: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، مطبعة البابي الحلبي، ط ٢، ١٩٦٦ م .
 ٨. الاستخبارات العسكرية في الإسلام: رسالة ماجستير قدمها الباحث: عبد الله علي السلامة إلى كلية الشريعة في الجامعة الأردنية، ١٩٨٦ م .
 ٩. الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل . بيروت، ١٤١٢ هـ .
 ١٠. الأم، أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ)، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .
 ١١. الأمن القومي العربي (عقيدة الجهاد والإستراتيجية العسكرية في الإسلام): اللواء . أركان حرب . محمد يوسف عمرو العملة، مطبوعات الراية، ط ١، ٢٠٠٩ م .
 ١٢. الباحثون عن الأسرار: قحطان محمد صالح الجميلي، المكتبة الوطنية . بغداد، ١٩٨٦ م .
 ١٣. التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية: محمد راكان الدغمي، جمعية عمال المطابع التعاونية . عمان، ط ١، ١٩٨٤ م .
 ١٤. الترغيب والترهيب: أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية . بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ .

١٥. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب . الرياض، ٢٠٠٣م.
١٦. الحرب الخفية (فلسفة الجاسوسية ومقاومتها): صلاح محمد نصر، دار الوطن العربي، ط٢، د.ت.
١٧. الخراج، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد بن حبة الأنصاري (ت ١٨٢هـ)، المكتبة الأزهرية للتراث، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، سعد حسن محمد.
١٨. الزاهر في معاني كلمات الناس: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة . بيروت، ط١، ١٩٩٢م .
١٩. السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة: بريك بن محمد بريك أبو مائلة العمري، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار ابن الجوزي، ط١، ١٩٩٦م.
٢٠. السيرة النبوية لابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام البصري (ت ٢١٣هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط٢، ١٩٥٥م .
٢١. العلاقات الدولية في الإسلام: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي . القاهرة، ١٩٩٥م .
٢٢. العلاقات الدولية في القرآن الكريم والسنة: د. محمد علي الحسن، مكتبة النهضة الإسلامية . عمان، ط٢، ١٩٨٢م.
٢٣. العملاء كما يصورهم القرآن الكريم: محمد نور الدين شحادة، المكتبة الوطنية . عمان، ٢٠٠٥م .
٢٤. الفهم الوسطي للجهاد في الفكر الإسلامي: د. فؤاد محسن الراوي، دار الضياء . عمان، ٢٠٠٩م .
٢٥. القاموس الفقهي: سعدي أبو حبيب، دار الفكر . دمشق، ط٢، ١٩٨٨م.
٢٦. القانون الدولي الانساني في الاسلام، د. زيد عبد الكريم الزيد، منشورات اللجنة الدولية للصليب الأحمر . الكويت، ٢٠٠٤م.
٢٧. الكليات: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة . بيروت، ١٩٩٨م.
٢٨. المخصص: أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٢٩. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (٣٢١ - ٤٠٥ هـ)، حققه وخرجه وعلّق عليه: عادل مرشد، د أحمد برهوم، د محمد كامل قرّة بلي، د سعيد اللحام، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م.
٣٠. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت ٧٧٠هـ)، المكتبة العلمية . بيروت.
٣١. المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار، تحقيق: مجمع اللغة العربية.

٣٢. المغرب في ترتيب المعرب: أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد . حلب، ط١، ١٩٧٩م .
٣٣. المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة . بيروت.
٣٤. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي، دار الساقى، ط٤، ٢٠٠١م .
٣٥. الموطأ: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت ١٧٩هـ)، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ط١، ٢٠٠٤م .
٣٦. تاريخ النقد الأدبي عند العرب: إحسان عباس، دار الثقافة . بيروت، ١٩٨٣م.
٣٧. تاريخ مدينة دمشق: أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: محب الدين العمري، دار الفكر . بيروت، ١٩٩٥م .
٣٨. تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول: تصنيف الشيخ خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة - بيروت، ١٩٩٨م .
٣٩. تفسير أحكام القرآن للجصاص: أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي . بيروت، ١٤٠٥هـ .
٤٠. تفسير البحر المديد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي، دار الكتب العلمية . بيروت، ٢٠٠٢م .
٤١. تفسير التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ) ، مؤسسة التاريخ العربي . بيروت، ط١، ٢٠٠٠م .
٤٢. تفسير القرآن العظيم: الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرين، مؤسسة قرطبة . القاهرة، ٢٠٠٠م .
٤٣. تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
٤٤. تفسير اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، دار الكتب العلمية . بيروت، ط١، ١٩٩٨م .
٤٥. تفسير جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة . بيروت، ط١، ٢٠٠٠م .
٤٦. تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: أبو الفضل محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي . بيروت.
٤٧. تقنية التجسس: غراهام يوست، ترجمة الرائد إلياس فرحات، دار الحرف العربي . بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

٤٨. حماية الحياة الخاصة في الشريعة الإسلامية: محمد راكان الدغمي، دار السلام للطباعة والنشر. القاهرة، ط١، ١٩٨٥م.
٤٩. دستور الأسرة في ظلال القرآن: أحمد فائز، مؤسسة الرسالة. بيروت، ط٦، ١٩٩٢م.
٥٠. زاد المعاد في هدي خير العباد: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الرابعة عشرة، ١٩٨٦م.
٥١. سلوك المالك في تدبير الممالك: شهاب الدين أحمد بن أبي الربيع، تحقيق: عارف أحمد عبد الغني، دار كنان. دمشق، ١٩٩٦م.
٥٢. سنن ابن ماجه: محمد بن زيد أبو عبد الله القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر. بيروت.
٥٣. سنن أبي داود: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي. بيروت.
٥٤. سنن البيهقي الكبرى: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الباز. مكة المكرمة، ١٩٩٤م.
٥٥. سنن الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
٥٦. سير أعلام النبلاء: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ)، خرج أحاديثه واعتنى به: محمد أيمن الشبراوي، دار الحديث، القاهرة - مصر، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م.
٥٧. شرح السنة: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي. دمشق، ط٢، ١٩٨٣م.
٥٨. شرح السير الكبير، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (ت ٤٨٣هـ)، الشركة الشرقية للإعلانات، ١٩٧١م.
٥٩. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار الفكر. دمشق، ط١، ١٩٨٧م.
٦٠. صحيح ابن حبان: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَد، التميمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة. بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
٦١. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير. بيروت، ط٣، ١٩٨٧م.
٦٢. صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري (ت ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الجيل. بيروت.
٦٣. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العيني الحنفي، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد (ت ٨٥٥هـ).

٦٤. فتح الباري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة . بيروت، ١٣٧٩هـ.
٦٥. في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت ١٣٨٥هـ)، دار الشروق . بيروت، ط٥، ١٩٩٦م.
٦٦. كتاب الأفعال: أبو القاسم علي بن جعفر السعدي، عالم الكتب . بيروت، ١٩٨٣م.
٦٧. لسان العرب: محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار صادر . بيروت، ط١.
٦٨. مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت ٢٤١هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة . بيروت، ط٢، ١٩٩٩م.
٦٩. معجم القراءات: د. عبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين . دمشق، ط١، ٢٠٠٢م.
٧٠. معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر . بيروت، ١٩٧٩م.
٧١. نظرية الحرب في الإسلام: محمد أبو زهرة، دار القاهرة للطباعة والنشر. القاهرة، ط١، ١٩٧١م .
٧٢. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية . بيروت، ط٢، ٢٠٠٢م .
٧٣. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: شمس الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة بن شهاب الدين الرملي الشهير بالشافعي الصغير (ت ١٠٠٤هـ)، دار الفكر . بيروت، ١٩٨٤م .
٧٤. نيل الاوطار من احاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، إدارة الطباعة المنيرية، د.ت .

الدوريات

١. مجلة الحرس الوطني: التجسس من خلال اختراق شبكات الإتصالات: سبأ عبد الله باهيري، العدد ٢١٨ أغسطس ٢٠٠٠م .
٢. مجلة (وجهات نظر في الثقافة والسياسة والفكر): أكبر شبكة تجسس إلكترونية في العالم: نيكي هاجر، العدد ١٥، السنة الثانية، أبريل ٢٠٠٠م .